

رجال تعطرت بأنفاسهم الدنيا ،
وتجمل بهم تاريخ الانسانية ،
وفاقوا الملائكة في السمو وعلو
المدارك .

ان المدنية لا تدين لاي طائفة
من طوائف البشر كما تدين
الطائفة الربانية ، انها تدين
لها في حياتها وبقائها ، وفي
شرفها وكرامتها ، وفي اعتدالها
وسدادها فلولاهم صلى الله
عليهم وسلم لفرقت سفينة
الانسانية بما فيها من علوم
وتراث حضارى وفلسفة
وحكمة ، ولتحولت الاجيال
البشرية الى قطعان من
السائمة او الوحوش ، لا تعرف
ربا ، ولا تعرف دينا ولا خلقا
ولا تعرف رحمة ولا محبة ،
ان كل ما يوجد في هذا العالم
من المعاني الانسانية الكريمة ،
والاحاسيس الرقيقة اللطيفة ،
والاخلاق العالية الفاضلة
والعلوم الصحيحة النافعة ،
ومن القوة والعزم على محاربة
الباطل والفساد ، انها يرجع
فضله وينتهى تاريخه الى وحى
السماء ، وتعليمات الانبياء ،
وتبليغهم ودعوتهم وجهادهم ،
والى اصحابهم وتابعيهم
باحسان ، ومازال العالم ولا
يزال يمشي في ضوئهم ويعيش
في البناء المحكم الذى بنوه .

حسين عاشور

النبوة والانبياء في ضوء القرآن

المكتبة
الاسلامية

أبو الحسن الندوي

النبوة والأنبياء في ضوء القرآن

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الرابعة

١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م

المختار الاستدالي
للطباعة والنشر والتوزيع
ص. ب ١٧٠٧ القاهرة
هاتف ٩٣٦٤٩٦

كلمة المؤلف

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ، أما بعد ، فقد تلقيت في شعبان عام ١٣٨٢ هـ برقية من نائب رئيس الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة صاحب الفضيلة الشيخ عبد العزيز ابن عبد الله بن باز ، يدعوني كأستاذ زائر لهذه الجامعة ، ويقترح على القاء محاضرات على طلبتها الذين تصدوا هذه الجامعة من أنحاء العالم الإسلامي ، وقد قبلت شاكرًا هذه الدعوة الكريمة ، ورأيت أنها فرصة سانحة يجب أن تنتهز للتحدث الى هذه المجموعة الطيبة من الشباب الإسلامي ، التي يتسرو وجودها في مكان واحد ، ولغرس معان كريمة في قلوب هذه الناشئة المصافية في بلد طيب يخرج نباته بأذن ربه .

وكان الموضوع الذي آثرته لهذه المحاضرات « النبوة والأنبياء في ضوء القرآن » وإم يكن موضوعًا مرتجلًا ولا من سوانح الآراء ، إنما هو موضوع كان يجول في خاطري من زمن طويل ، وأرى معالجته والحديث عنه من أهم البحوث والدراسات التي تشتد حاجة الطبقة المثقفة اليها ، وأعتقد أن أقوى سبب انحراف هذه الطبقة الموجهة للشعوب الإسلامية عن الجادة ، وتخليها عن روح الإسلام الصحيحة ، وخضوعها الزائد للمفاهيم والقيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ويعاق عليها فضيلة الشيخ عبد العزيز بن باز نائب رئيس
الجامعة ، ويحضرها - غير الطلبة - عدد من أعيان المدينة ورجال
الثقافة وأساتذة الجامعة .

وها نحن أولاء ننشر هذه المحاضرات مجموعة في كتاب ،
لا نزعم أنها بحوث مبدعة أو فتح جديد في العلم والتحقيق ،
ولكنها أنارة فكر ، وإثارة شعور ، وخطوط عريضة لبحث
أكثر تركيزا ، وكتاب أوسع مادة ، وقد تعمدت الأسلوب الأدبي
والاجتماعي الخفيف ، وتجنبنا أسلوب علم الكلام والعقائد
العميق الثقيل ، ولكن رغم ذلك قد احتوت على حقائق
وأشارات تطلب التفكير العميق ، وتستدعي البحث الدقيق ، في
المجتمع الاسلامي المعاصر ، الذي هو في طور انتقال وتصميم ،
ويواجه صراعا عنيفا بين القيم والمفاهيم ، والله يهدي من يشاء
الى صراط مستقيم .

— المجمع الاسلامي العلمي — أبو الحسن علي الحسيني الندوي

ندوة العلماء ، لكهنؤ (الهند)
لخمس خلون من محرم الحرام

هـ ١٣٨٣

المادية المنافية لروح الديانات السماوية ، وتمسكها بالأساليب
الصناعية والمناهج الفكرية الغربية ، حتى في تفسير الاسلام وفي
حقل الدعوة والإصلاح العام ، هو بعدها عن منهج النبوة ،
وجعلها لقيمتها وفضلها على الحياة والمدنية والعقل الانساني ،
وشدة حاجة الانسانية في جميع أدوارها الى قيادتها . وكذلك
غفلتها عن سير الأنبياء والرسل وطبائعهم وأخلاقهم .

جاءت هذه الدعوة الكريمة من جهة كريمة ، فأثارت هذا
الشعور الكامن وهيأت الفرصة المناسبة والدوافع النفسية القوية
للتفرغ لهذا الموضوع ، الذي لولا هذه الدعوة ولولا هذا الدافع
القريب لتأجل الى وقت آخر ، كما تتأجل مواضع أخرى تغلب
عليها وتشغل عنها حاجات مؤقتة أو أعمال رتيبة تملأ فراغ
الموقت وتشغل خاطر ، ورأيت أن خير مكان للحديث عن هذا
الموضوع الجليل هو المدينة المنورة التي حصل فيها آخر اتصال
السماء بالأرض لهداية البشرية عن طريق الوحي والنبوة .

وكتبت أكثر هذه المحاضرات في رمضان (١٣٨٢ هـ) في قرنتي
الصغيرة (١) المنعزلة البعيدة عن كل مكتبة ، واعتمدت فيها
على القرآن الكريم ، وأسسها على دراسته والتدبر فيه ،
وكتبت أطلب أحيانا بعض المصادر التي أنقل منها بعض العبارات
— شرحا لفكرة أو تأييدا لقول — من مكتبة ندوة العلماء العظيمة
في لكهنؤ ، وجاءت ست محاضرات لكل محاضرة عنوان خاص ،
وزدت اليها شيئا يسيرا .

وصلت الى المدينة المنورة في آخر شوال (عام ١٣٨٢ هـ)
وبدأت المحاضرات في ذي القعدة وكانت تلقى مرتين في الاسبوع
في قاعة المحاضرات في الجامعة الاسلامية بعد صلاة العشاء، يمهد
لها الأستاذ عطية محمد سالم مدير الشؤون التعليمية في الجامعة

(١) زاوية جدنا الكبير الشيخ علم الله الحسيني النقشبندی في راي بريلي .

غير هذا الحديث الذي هو من وحى المكان ، وفيض الإيمان
واستجابة لشعور الحسن والاحسان .

ولما نزلنا منزلا طله الندى انيقا وبستانا من النور حاليا
أجد لنا طيب المكان وحسنه منى ، فتمنينا ، فكنت الأمانيا

مهمة الجامعة الأساسية :

ومهمة كل مدرسة تقوم في الاسلام — فضلا عن أن تقوم في
مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم — ان تعنى قبل كل شيء بفهم
نعمة النبوة التي ما أنزل الله نعمة أعظم منها ، وتعنى بقدرها
وشكرها وتجتهد أن تكون من أنصارها ودعاتها ، وأن تنضم الي
معسكرها ولوائها في معترك الحياة الذي انتشرت فيه الوباء
الجاهلية ورايات الردة والثورة ، وأن تنتصر لها في مجالات الحياة
كلها ، من فكرية واعتقادية ، الى عملية وتطبيقية ، ومن خلقية
 واجتماعية ، الى مدنية وسياسية ، وأن يكون شعار أبنائها
ومتخرجيها الدائم وهدفهم الأسمى ايثار النبوة ومنهاجها على كل
فلسفة ومنهاج وعلى كل منحى وطريق ، وعلى كل أسلوب من التقدير
وعلى كل لون من الحياة ، وطرز من المدنية وقسم من أقسام
المجتمعات البشرية ان هذه المهمة الأساسية هي أهم وأقدم من
دراسة جميع العلوم والمواد التي تعنى المدارس والجامعات
الاسلامية بدراستها والتوسع فيها ومن الشعارات التي تدين بها
وتتهتك ، فان المعركة الخالدة الحاسمة الحقيقية لم تزل ولا تزال
بين الجاهلية والنبوة — التي يمثلها الاسلام في هذا الزمان — وكل
معركة غيرها معركة شكلية أو معركة داخلية ، كما قد يتقاتل
أفراد أسرة واحدة على شيء تافه ، أو كما قد يتصارع الأطفال
لقصر نظرهم ، أما المعركة المبدئية الدائمة فهي معركة الجاهلية
والنبوة .

لذلك أيضا كان الحديث أولى بأن يكون الحديث الأول في
الجامعة الاسلامية التي تقوم في مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام
ظئر الاسلام ومآزر الإيمان ومهبط الوحي ، ونهاية المطاف في رحلة
النبوة الطويلة وتاريخها السامى .

المحاضرة الاولى

النُّبُوَّة

حاجة الإنسانية اليها وفضلها على المدنية

حديث من وحى المكان :

سادتى ! ان اليق حديث بهذا المكان الذي نجتمع فيه ، حديث
عن النبوة ، وحاجة الإنسانية اليها وفضلها على المدنية ، وعن
السادة الذين أكرمهم الله بها ، وعن عظيم منزلتهم عند الله ،
وكبير فضلهم على الخلق ، وعميق أثرهم في الحياة ، وعن امامهم
وخاتمهم الذي خصه الله بالرسالة الأخيرة والنبوة العامة الدائمة،
والإمامة الخالدة والشريعة الباقية والكتاب المحفوظ ، وحصر
سعادة الإنسانية على اختلاف طبقاتها وعصورها على الإيمان به
واتباعه ، وآثر هذا الباد الطيب بأن يكون مهجره ومثواه
الأخير ، وهنا حصل آخر اتصال السماء بالأرض لاوحى والرسالة،
وعلى من يمنح فرصة الحديث في هذا المكان الكريم وتساق اليه
هذه الكرامة أن يتقى الله ويستحى أن يكون له حديث آخر

حاجة العصر الى هذا الحديث :

لقد اشتدت الحاجة الى هذا الحديث في كل مكان ، وفي كل مجمع علمي ، وفي كل جامعة كبيرة ، اشتدت الحاجة اليه في جامعات أوروبا وفي ندواتها العلمية وفي هيئة الأمم ، وفي منظمة الثقافة العالمية ، فليس شقاء الانسانية وأزمة المدنية الحاضرة — مع تملكها لجميع أسباب السعادة والسلام والرفاهية والهناء — إلا بثورة قادتها على تعليمات النبوة والأنبياء وتخطيهم لمدنية والحياة على غير الأسس التي جاء بها الأنبياء والمرسلون ، واستغنائهم — وبالأصح استكبارهم — عن ما أكرم الله به انبيى العربى الأمى وقولهم بإسان حال أو مقال : أبشر يهدوننا ؟ ! أمى جاء يعلمنا ؟ ! أفقر يحاول اسعادنا ؟ ! أبدوى يريد أن يمدنا ؟ !

ولكننا اذا عجزنا بسوء الحظ — أيها السادة — أو لم تسمح الظروف بعد عن أن نتحدث بهذا الحديث في جامعات أوروبا وأمريكا وفي جامعات آسيا المدنية فلا يجوز أن نعجز عنه في الجامعة الاسلامية في المدينة المنورة ، وكانت المدينة دائما حقل النواة الكريمة ، والبلد الطيب الذى يخرج نباته باذن ربه ، وتقول كمتها فردد صداها العالم .

النظر الى النبوة والأنبياء من خلال القرآن :

لقد نظر علم الكلام أو علم التوحيد — وارجو عدم المؤاخذه — الى النبوة والأنبياء بنظر قاصر محدود ، واعتبرها عقيدة جامدة محدودة لا صلة لها بالحياة الا في دائرة ضيقة محدودة من العقائد ، ولعلم التوحيد بعض العذر في وضعه العلمى المحدود ورسالته التعليمية الخاصة . اذن يجب علينا أن ننظر الى النبوة والأنبياء من خلال القرآن وبمفطار القرآن ، ونستعرض كتاب الله الحكيم لنعرف مداها وافاقها الواسعة ، وأعماقها الفائرة وجذورها العميقة في الحياة الانسانية ، وسيطرتها على العقول والنفوس ،

والأخلاق والميول ، وتأثيرها في تكوين السير وتشكيل المجتمعات ، وقيادتها للمدنيات ، بل تأسيسها لحضارة خاصة متميزة في كل شيء ، موازية للجاهلية ، مقابلة لها على طول الخط .

حديث أثر حبيب :

اننا نقرأ القرآن لهذا الغرض فتطالعنا قطع ونماذج وصور لم يخلق الله أجمل منها في هذا الكون ، وهى أجمل ما في مجموع الصور البشرية بالاطلاق ، ونرى أسلوب القرآن في الحديث عنهم أسلوبا يتدفق بالحياة ، ويفيض بالبشر ، وينم عن الحب والإيثار ، وكأنه حديث أثر حبيب عن أثر حبيب ، فليتنوع وليتنوع وليتنوع ، ولا يتوقف ولا ينقطع ، وكل من رزق الذوق السليم والشعور بالجمال وعاطفة الحب ، استلذ بهذا الحديث وتذوق هذا الأسلوب ، اقرؤوا معى قوله تعالى :

« ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين ، شاكرا لأنعمه اجتهاه وهداه الى صراط مستقيم ، وآتيناه في الدنيا حسنة ، وانه في الآخرة لمن الصالحين ، ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين (١) » .

واقرؤوا معى كذلك قوله تعالى :

« وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه ، نرفع درجات من نشاء ، ان ربك حكيم عليم ، ووهبنا له اسحق ويعقوب وكلا هدينا ، ونوحا هدينا من قبل ، ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون ، وكذلك نجزي المحسنين . وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين . واسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين ، ومن آباءهم وذرياتهم وأخوانهم واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم . ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ، ولو أشركوا لحبط عنهم ما

(١) النحل ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ .

كانوا يعملون . أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة ،
فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين (١) .»

صفة الخلق والمثل الكامل للانسانية :

ويذكرهم القرآن تارة بالاصطفاء والاجتباء ، وطورا بالحب
والرضا ، وتارة بأسمى الصفات والمواهب العقلية والخلقية
والعملية ، كل يدل على أنهم صفة الخلق ، والمثل الكامل
للانسانية ، ومن أقوى البشر وأجدرهم بحمل رسالات الله ،
ودعوة الخلق الى الله « الله أعلم حيث يجعل رسالته (٢) » ويقول
عن ابراهيم « ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين (٣) »
ويقول « واتخذ الله ابراهيم خليلا (٤) » ويقول « وتركنا عليه
في الآخريين ، سلام على ابراهيم كذلك نجزي المحسنين ، انه من
عبادنا المؤمنين (٥) » ويقول : « ان ابراهيم لحليم اواه منيب (٦) »
ويقول عن اسماعيل « وكان عند ربه مرضيا (٧) » ويقول عن موسى
« واصطنعتك لنفسى (٨) » ويقول « والقيت عليك محبة منى ولتصنع
على عيني (٩) » ويقول « انى اصطفيتك على الناس برسالاتى
وبكلامى (١٠) » ويقول عن داود « واذكر عبدنا داود ذا الأيد انه
أواب (١١) » ويقول عن ابنه سليمان « نعم العبد انه أواب (١٢) »

وكذلك يقول عن النبي ايوب ، ويذكر جماعة من الانبياء المكرمين ،
فتحدث عنهم في اختصاص وايتار ، وحب واکرام ، وينعتهم بأفضل
النعوت « واذكر عبادنا ابراهيم واسحق ويعقوب أولى الأيدي
والأبصار ، انا اخلصناهم بالخالصة ذكرى الدار ، وانهم عندنا لمن
المصطفين الأخيار ، واذكر اسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من
الأخبار (١) » .

وقد استرسلت في هذا الحديث — والحديث لذيد — مع
معرفة أنكم تقرؤون القرآن وتدرسونه دراسة علمية ، وليس
ما أتوه عليكم جديدا عليكم او غريبا عنكم ، وانما فعلت ذلك
لاستحضر لأذهانكم منزلة الانبياء عند الله ومقامهم الرفيع
الحبيب ، ولهج القرآن بذكرهم ، ووصفهم بأفضل الصفات
وأزكى النعوت ، وأكرم الأخلاق ، وأشرف السجايا ، وأغنى
المواهب .

تصوير النبوة والمثل الحكيم :

ما مركز النبوة والانبياء في هذه الحياة التى تعتمد — فى استقاء
معلوماتها وقضاء أغراضها — غالبا على الحواس الانسانية والعقل
الموهوب ، وتجسد فيها الكفاية والغناء والأمانة والوفاء ؟ وما هى
ميزة الانبياء بين جماعات العلماء وطوائف العقلاء ؟ ولماذا لهم
الحق أن يتحدثوا — هم وحدهم — عن أشياء ، ويتقدموا بأنبياء
لا تتناولها الحواس القوية والعقول النافذة ، وهم جميعا أبناء بيئة
واحدة ، وواقفون على صعيد واحد ؟ لماذا يرون مالا يراه العمالقة
من أقرانهم ، والنبغاء العبقريون من معاصريهم وجيرانهم ثم يأتى
ذلك مثل فلق الصبح ، وتتحقق نبواتهم .

هذا سؤال طبيعى يساور النفوس عند كل بعثة نبوة جديدة ،
وكان لابد من مواجهته يوم أكرم رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) سورة ص ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ .

- (١) الانعام ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ .
- (٢) الانعام ١٢٤ .
- (٣) الانبياء ٥١ .
- (٤) النساء ١٢٥ .
- (٥) الصفات ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ .
- (٦) هود ٧٥ .
- (٧) مريم ٥٥ .
- (٨) طه ٤١ .
- (٩) طه ٢٩ .
- (١٠) الاعراف ١٤٤ .
- (١١) ص ١٧ .
- (١٢) ص ٣٠ .

قد غفل عنه أهل البلاد ، أن يرتقى أحدهم قمة جبل أو ربوة
ويصرخ بأعلى صوته « يا صباحاه » فيفزع القوم ويأخذون عدتهم
ويخرجون على بكره أبيهم ، لمواجهة الخطر الداهم والعدو
المهاجم .

وما هو هذا الخطر الذى كان يقلق مضاجعهم ويحول بينهم
وبين راحتهم ولذاتهم وما مدى تأثيره وضرره في حياتهم ؟

عدو يقتل منهم الكثير ، وينهب أموالهم ويستاق أبليهم وماشييتهم ،
ويلحق بهم الأضرار .

هانت هذه الأخطار والأضرار — على ضخامتها وواقعيتها — في
عيون الأنبياء والرسل الذين عرفوا خطر الجهل لصانع هذا الكون
ومدبرة وصفاته الحقيقية وحقوقه ، وخطر الحياة الجاهلية التى
كان يعيشها أهل ذلك العصر وسكان هذا الوادى ، وضرر المعاصى
والأخلاق التى اتسم بها هذا المجتمع الجاهلى « يعبدون
الأصنام ، ويأكلون الميتة ، ويأتون الفواحش ، ويقطعون
الأرحام ، ويسبون الجوار ، ويأكل القوى منهم الضعيف » (١)
فراى هذا العدو ، الذى يعيش في نفوسهم وفي عقائدهم وأخلاقهم ،
أضر وأفتك من كل عدو من الخارج ، وأن هذا الخطر — الذى ينبع
وانبثق من داخلهم ، أعظم من كل خطر عرفوه في حياتهم الجاهلية
الطويلة ، وفي مجتمعهم العربى القبلى ، وأن عداوة نفوسهم أشد
وأدق من عداوة كل قبيلة منافسة ، ومن كل جيش محارب ، وأن
أسلوب حياتهم يثير سخط الله القادر القاهر الذى لا يرضى لعباده
الكفر ولا يحب في الأرض الفساد .

مخرج صلى الله عليه وسلم وصعد على جبل الصفا — وهو

(١) هذا الوصف للمجتمع الجاهلى العربى ، الذى كانت فيه بعثة رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، مأخوذ من حديث جعفر بن أبى طالب في مجلس
النجاحى ملك الحبشة (انظر سيرة ابن هشام القسم الاول ص ٣٢٦ طبع
الطبعة) وفي الاصل كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ... الخ .

بالنبوة وأمر بالانذار وتبليغ الرسالة ، وكان الموقف الذى وقفه
خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم من هذه المشكلة معجزة
كبيرة من معجزاته الخالدة في الحكمة والدعوة والحجة والبيان .

عاشت الأمة العربية — وسكان هذا الوادى بصفة خاصة —
مدة طويلة بعيده عن المفاهيم الدقيقة ، والمصطلحات العلمية ،
والبحوث اللاهوتية ، ولكنها فاقت وتميزت بسلامة فهمها وسرعة
ادراكها ، وحبها وخضوعها للواقع ، وعلى ذلك اعتمد الرسول
صلى الله عليه وسلم في شرح مركز النبوة والنبي في هذه الحياة ،
وتبرير حقه في الانذار والانباء ، ومخالفة المألوف المعروف المشاهد
بالعيان ، والأخبار بما لا يراه الانسان ، فكان أبلغ من ألف دليل
يستند اليه أئمة الكلام وعلماء اللاهوت .

وكانت جميع المراحل التى اجتاز بها الرسول الأعظم صلى الله
عليه وسلم وجميع الوسائل التى اتخذها واستخدمها في هذه المهمة
المقدسة الدقيقة مطابقة للطبيعة والبيئة ، وهكذا الانبياء لايتجنون
— في أداء مهمتهم وتبليغ رسالتهم الى الصناعة والتكلف ،
والاستعارة والاستيراد ، ويكونون من التافه الموجود الشئ العظيم
المفقود .

لم يكن ذلك عصر الصحافة والاذاعة ، وعصر آلات نشر الصوت
وتضخيمه ، فما هو السبيل الى « حشر » سكان الوادى الى
مكان مخصوص في زمن مخصوص ، وما هو السبيل الى السيطرة
على عقولهم ونفوسهم حتى ينفذوا أيديهم من أشغالهم وملذاتهم ،
ويخفوا الى مكانه فزعين مسرعين ؟

كان الرسول عربيا يعرف عادات العرب وتقاليدهم ، وشعاراتهم
وتأثيرها في نفوسهم ومجتمعهم فاستعان بذلك في سبيل هذه الغاية
التي لا غاية أفضل منها .

اعتاد العرب اذا أحس أحد منهم بخطر ، أو بعدو يريد أن
يفاجيء ويأخذ القوم على غرتهم ، أو بعدو كامن قاعد بالرصاد ،

أقرب الجبال إليهم — ونادى بأعلى صوته « يا صباحاه » وقد شهد هذا الوادي بأنه كان أصدق صوت في أصدق مناسبة ، وأنه اليق وضع لهذا الإنذار البليغ ، والصيحة المفزعة .

وقد سمع أهل مكة الصيحة المعروفة المألوفة ، تخرج من فم أصدق رجل عرفوه في بلادهم وسموه « الصادق الأمين » وفهوا معناها ومطالبها ، وأمامهم سلسلة طويلة من التجارب والحوادث فلم يتأخروا في تلبية هذا النداء « فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيء إليه وبين رجل يبعث رسوله(١) » .

« فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا بني عبد المطاب ! يا بني فهر ! يا بني كعب ! أرايتم لو أخبرتم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم ، صدقتموني ؟(٢) » .

كان القوم الذين خاطبهم الرسول العربي صلى الله عليه وسلم ، ووجه إليهم هذا السؤال أميين غير مثقفين ، لم يدرسوا الفلسفة وعلوم المنطق ، ولم يألفوا التعمق والتدقيق ولكنهم — كما قلت — كانوا واقعيين عمليين ، رزقهم الله النصيب الأوفر من سلامة الفهم وسرعة الإدراك ، فاستعرضوا الواقع واستعرضوا المحيط الذي وقف فيه هذا الخطيب النذير واستعرضوا وضعه الطبيعي .

أرأوا رجلا جربوا عليه الصدق والأمانة والنصيحة وحب الخير ، قد وقف على جبل يرى ما أمامه وهو الذي اشترك فيه مخاطبوه ، وينظر إلى ما وراء هذا الجبل والسفح المقابل ، فعرفوا من غير شك وتأمل طويل ، أن له الحق أن يتحدث عما في السفح المقابل من عدو رابض وخطر كامن ، وليس لهم حق — وقد حال الجبل بينهم وبين السفح المقابل — أن يكذبوه وينفوا رؤيته على أساس أنهم لا يشاركونه في هذه المشاهدة ، فقد فرق الجبل القائم بين

وضعهم ووضع الخطيب النذير ، وأعطاه من فرصة المشاهدة وحق الشهادة ما لم يعطهم .

وكانوا عقلاء منصفين ، شجعانا صادقين فقالوا : « نعم » !

وقد نجح رسول الله صلى الله عليه وسلم بحكمة النبوة التي خصه الله بها ، وبلاغته العربية التي أكرمه الله بها . وقد صور لهم مركز النبوة والأنبياء الفريد الدقيق ، ووضعهم الشاذ الذي يستطيعون به أن يشاهدوا ما لا يشاهده أقرانهم وأبناء جنسهم وعصرهم ، ويشهدوا بما لا يشهد به المصلحون والزعماء عادة ، فقد وقفوا على قمة جبل من النبوة يطلون منها على الجانبين ، الجانب الحسى يحكم النبوة التي يكرمهم الله بها ، والاتصال بعالم الغيب تحت الإرادة الإلهية « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي »(١) .

وليس لأنكى انسان ، وأعظم عالم ، وأكبر عاقل أن يكذبهم وينفى مشاهدتهم على أساس أنه لا يشاركهم في هذه المشاهدة ، ولا يرى ما يرونه ، كما لا يجوز لمن وقف في سفح الجبل أن يكذب من قام على قمته وأخبر بما وراء الجبل وتحدث عما وراء الأكمة .

فاذا حاجهم وخاصهم أسير لحسه قالوا محتجين مستغربين « أتحاجوني في الله وقد هدان(٢) » وكان العرب الأميون أعقل

— في هذه المرحلة البدائية — من الفلاسفة والحكماء الذين كذبوا أخبار الرسل وشكوا في الحقائق التي جاؤوا بها على أساس عدم مشاهدتهم واطلاعهم « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله(٣) » .

ولما تمت هذه المرحلة الطبيعية العقلية التي كان لا بد منها ،

(١) الكهف ١١٠ .
(٢) الانعام ٨٠ .
(٣) يونس ٢٩ .

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٣ ص ٢٨ .
(٢) أيضا .

تقدم الرسول صلى الله عليه وسلم خطوة ثابتة ودخل في المرحلة الثانية ، المرحلة النهائية .

فقال : « فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » أنذرهم بالخطر الحقيقي الدائم الذي يهددهم والذي هو طبيعة هذه الحياة التي يحيونها ، والعقائد التي يدينون بها والأصنام التي يعكفون عليها ، والعادات الظالمة والأخلاق الجاهلية التي يتمسكون بها ، وبالاختصار هذه الجاهلية الجهلاء التي يعيشون عليها ، لا إيمان ، ولا علم ، ولا عدل ، ولا تقوى .

ان طبيعة هذه الحياة هو الفساد الشامل في المجتمع ، والمعيشة الضنك ، والقلق النفسي ، والعذاب الداخلي في هذه الحياة « ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون(١) » « ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون(٢) » .

والعذاب الدائم بعد هذه الحياة الذي يهون ويصغر أمامه كل عذاب وألم « ولعذاب الآخرة أشق(٣) » « ولعذاب الآخرة أشد وأبقى(٤) » « ولعذاب الآخرة أجزى(٥) » .

لقد اطاع العلماء والفاحصون على خواص الأدوية ، وعرفوا كثيرا من طبائع الأشياء والقوى المودعة في الموجودات ، وكونوا العلوم والمعلومات التي انتفع بها الناس وشكروا أصحابها واعترفوا بفضلهم ، وتفرد الأنبياء بمعرفة ذات الله وصفاته وأحكامه ومرضاته ، وبخواص العقائد والأعمال والأخلاق ، صحيحها وسقيمها وصالحها وفاسدها وما تجر وتستنبتع من سعادة وشقاء في الدنيا ، وثواب وعقاب ، وجنة ونار في الآخرة ، وخصهم

(١) الروم ٤١ .

(٢) السجدة ٢١ .

(٣) الرعد ٣٤ .

(٤) طه ١٢٧ .

(٥) فصلت ١٦ .

الله — بقدر ما يريد — بعلم ما يكون بعد هذه الحياة ، وفي ذلك العالم من حشر ونشر وانعام وعذاب ونعيم وجحيم .

« عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا الا من ارتضى من رسول(١) » .

لقد وقفوا عليهم السلام على جبل النبوة يشرفون منها — بقدر ما يريد الله — على عالم الغيب والشهادة ويخبرون بما يهجم على هذه البشرية وعلى هذه المدنية في المستقبل القريب والبعيد ، وما يمكن لها من خطر وضرر ، ثم يندرون قومهم شفقة واشفاقا وحبا واخلاصا ، فاذا نازع هذا الحق الطبيعي العقلي وهذه البدهة وشك أو شكك في مركزهم قلوا في نصيحة واخلاص وتألم واشفاق :

« قل انما أعظمكم بواحدة ، أن تقوموا لله مثنى وفرادى ، ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ، ان هو الا نذير لكم بين يدي عذاب شديد (٢) » .

الوسيلة الوحيدة للمعرفة الصحيحة والهداية الكاملة :

لذلك يلح القرآن على أن الأنبياء هم الأداة على ذات الله وصفاته الحقيقية ، وهم الوسيلة الوحيدة لمعرفة الله تعالى المعرفة الصحيحة التي لا يشوبها جهل ولا ضلال ولا سوء فهم ولا سوء تعبير ، ولا سبيل الى معرفة الله تعالى الصحيحة الا ما كان عن طريقهم ، لا يستقل بها العقل ، ولا يغنى فيها الذكاء ، ولا تكنى سلامة الفطرة ، وحدة الذهن والاغراق في القياس ، والغنى في التجارب ، وقد ذكر الله تعالى هذه الحقيقة الناصعة على لسان أهل الجنة ، وهم أهل الصدق وأهل التجربة ، وقد اعلنوا ذلك في مقام صدق كذلك « الحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا

(١) الجن ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) سبأ ٤٦ .

حاجبتم فيها لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون (١) .

وهذا سر ضلال الفلسفة الاغريقية الالهية وأقطابها ونوابغها ، فقد غرهم ذكاؤهم وعلومهم وآدابهم وشعرهم الخصب الفنى ، وملاحمهم العظيمة التى نظموها ، ونبوغهم فى علوم الرياضة والهندسة ، والاقليدس والفلسفة الطبيعية ، والنجوم والفلكيات فخاضوا فى الالهيات وفى موضوع الذات والصفات والخلق ، والابداع ، فجاجعوا بالسخيف الرذول وبالتهافت المتساقط وبالتناقض المتضاد من الآراء والأقوال والتحكمات والتخمينات التى صدق حجة الاسلام الغزالى رحمه الله فى وصفها بقوله .

« ظلمات فوق ظلمات ، لو حكاها الانسان عن منام رآه لاستدل على سوء مزاجه ، أو لو أورد جنسه فى الفقهيات التى قصارى المطلب فيها تخمينات لقليل انها ترهات ، لا تفيد غلبات الظنون (٢) » .

وقال فى موضع آخر « لست أدرى كيف يقنع المجنون من نفسه لمثل هذه الأوضاع ، فضلا عن العقلاء الذين يشقون الشعر بزعمهم فى المعقولات (٣) » .

وكذلك قال شيخ الاسلام ابن تيميه رحمة الله عليه :

فيقول معلقا على كلام الفلاسفة والحكماء : « ليتأمل اللبيب كلام هؤلاء الذين يدعون من الحذق والتحقيق ما يدفعون به ما جاءت به الرسل ، كيف يتكلمون فى غاية حكمتهم ونهاية فلسفتهم بما يشبه كلام المجانين ويجعلون الحق المعلوم بالضرورة مردودا ، والباطل الذى يعلم بطلانه بالضرورة مقبولا ، بكلام فيه تلبيس وتدليس (٤) » .

(١) آل عمران ٦٦ .

(٢) تهافت الفلاسفة ص ١٥ .

(٣) أيضا ص ١٢٤ .

(٤) منهاج السنة ج ٣ بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول فى الحاشية ص ٢٧٢ .

لنهندي لولا أن هدانا الله (١) « وقرنوا هذا الاعتراف والتقرير بقولهم « لقد جاءت رسل ربنا بالحق (٢) » فدل على أن الرسل وبعثتهم هى التى تمكنوا بها من معرفة الله تعالى وعلم مرضاته وأحكامه والعمل بها ، الذى تمكنوا به من الدخول فى الجنة والوصول الى دار النعيم .

وقد ختم الله تعالى سورة جلييلة من سور القرآن وهى سورة الصافات وقد نفى فيها ضلال المشركين وسوء اعتقادهم ونسبتهم الى الله ما هو منه برىء فقال فى آخر السورة « سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين (٣) » والآيات الثلاث حلقات متصلة بعضها ببعض ، فلما نزه الله نفسه العلية مما يتفوه به المشركون ، ذكر المرسلين الذين جاؤوا بالتنزيه والتشديد الكاملين ، والوصف الصحيح البايع ، وسلم وأثنى عليهم لأنهم هم أهل الفضل فى تعريف الخلق بالخالق ، وفى الوصف الصحيح الصادق ، وكانت بعثتهم منة على الخلق ، ونعمة على الإنسانية ، ومن مقتضيات الربوبية الرحيمة الحكيمة ، فختم كل ذلك بقوله « والحمد لله رب العالمين (٤) » .

ضلال الفلسفة اليونانية وسر ثقاتها وخبيثتها :

اذن قد ضل وتعب وجاهد فى غير جهاد من أراد معرفة الله تعالى المعرفة الصحيحة وصفاته وأسمائه الحسنى ، وما بينه وبين هذا العالم من صلة وكيفية احاطته به ، وقدترتم عليه ونفوذ أحكامه فيه عن غير طريق الأنبياء والمرسلين ، واعتمد فى ذلك على عقله وعلمه ونكائه والمماه ببعض العاوم والصنائع ، ونجاحه فى بعض المحاولات العلمية وانتاجه الضعيف المتواضع أو العظيم الضخم فى بعض مجالات علمية ، وحق عليهم قوله تعالى « ها أنتم هؤلاء

(١) الاعراف ٤٣ .

(٢) أيضا ٤٣ .

(٣) الصافات ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ .

(٤) أيضا

انما ينقطعون ويتخصصون لما بعثوا له وأمروا به. وتوقفت عليه
سعادة البشرية ويكولون هذه العلوم الى أصحابها .

مصير الأمم المتقدمة الراقية التي استغنت عن علم الأنبياء :

وقد كانت الأمم المتقدمة الراقية التي بلغت أوج المدنية والذكاء
والانتاج العلمى فى عصرها ، فى حاجة الى هذا العلم الذى يحمله
الأنبياء وينفردون به بين الخلق ، حاجة الفريق الى قارب النجاة
وحاجة المريض المشرف على الهلاك الى الدواء الأكرس ، وكان
أفرادها بالنسبة الى هذا العلم — مهما علا كعبهم فى العلم والمدنية
— جهالا أميين وفقراء مفلسين ، وأطفالا صغار . وكانت على
خطر — رغم كل فتوحها العلمية وازدهار المدنية — اذا جهلتها
أو رفضته ، وقد وقعت أمم متقدمة راقية غنية فى العلوم
والآداب التى يضرب بها المثل فى الذكاء والعبقرية فريسة الإنكار
والاستكبار والاعجاب بنفسها والادلال بعلمها وصنائعها ،
ونظرت الى ما جاء به نبي عصرهم بعين الأزدراء والاحتقار ،
وزهدت فيه واستصغرتة ، فذهبت ضحية هذا الغرور
وهذه السفاهة المصورة بالذكاء وتصور النظر ، الملقب حينئذ
بباعد النظر والنقد العلمى ، فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها
خسرا .

مثل العلم الذى يجيء به الأنبياء مع علوم البشر وصناعاتهم :

ان الفرق الواضح الذى بين علم الأنبياء وبين علوم العلماء
والحكماء أيها الاخوان ، انما يتجلى بوضوح فى قصة لعلمكم
سمعتوها ولكن لعلمكم لم تطبقوها على هذا الفرق ولم تستخرجوا
منها هذه الحكمة الرائعة ، وكما ضاعت أمثال حكيمة وقصص ذات
مغزى عميق ، واليكم معذرتى فان القصة تتصل بطائفتكم معشر
التلاميذ والطلبة .

يحكى أن فريقا من تلاميذ المدارس ركبوا سفينة للنزهة فى
البحر أو للوصول الى البر ، وكان فى النفس نشاط وفى الوقت

وحق عليهم قوله تعالى « أشهدوا خلقهم ؟ ! ستكتب شهادتهم
ويسئلون (١) » وقوله « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا
خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا (٢) » .

عشرة الفلسفة التي بدأت فى العصر الإسلامى :

وقد تأثرت فلسفتنا الإسلامىة — مع الأسف — التى نشأت
لمحاربة الفلسفة اليونانية المحددة بنفسى نزعها ، وهى البحث
التفصيلى فى قضايا ليس عند الانسان مبادئها ومقدماتها ، وتسربت
اليها هذه الروح الفلسفية العاتية التى تتعدى حدودها ولا تعرف
قدرها ، فجاءت بالتدقيق والتقشير فى مسائل الذات وتأويل
الأسماء والصفات وتناولوه بالتشريح والتجزئة والتحليل ، كأنهم
فى معمل كيمائى ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

انفراد الأنبياء واختصاصهم بالعلم النافع المنجى :

تكفل الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وانفردوا بالعلم النافع
وبالعلم الذى لا سعادة للانسان ولا نجاة له بغيره ، وهو العلم
الذى يعرف به الانسان خالقه وفاطر هذا الكون ، ومدبر هذا
العالم ، وصفاته العالیه ، والصلة التى بينه وبين عبده ، وموقف
الانسان فى هذا العالم وموقفه من ربه ، ومبداه ومصيره وما
يرضيه تبارك وتعالى وما يسخطه ، وما يشقى الانسان فى الدار
الآخرة وما يسعده ، وخواص عقائده وأعماله وأخلاقه ، وجزاءها
وما يترتب على ما يصدر من قول واعتقاد وعمل من الثواب
والعقاب والنتائج البعيدة الطويلة المدى ، وهذا هو العلم الذى
يستحق أن يسمى « علم النجاة » والأنبياء مع سمو مداركهم ،
وصفاء حسهم وكونهم على الجانب الأعلى من الذكاء والنبوغ
الفطريين لا يتدخلون فى العلوم السائدة فى عصرهم ولا يزعمون
لهم فيها كعبا عاليا ولا يدا طولى .

(١) الزخرف ١٦ .

(٢) الكهف ٥١ .

ما أنتجه البشر وتوصلوا اليه في العلوم والحكمة ، واكتشفوا به هذا الكون الواسع والذخائر المودعة فيه ، ولكنها جهلت العلم الوحيد الذي يوصل الى الخالق ويعرف به ، والذي تنال به النجاة وهو بر السلام والساحل المقصود ، هو الذي يضبط الأعمال والرغبات ، ويقتصر النزوات والشهوات ، ويصلح الأخلاق ويهذب النفوس ويردع عن الشر ويدفع الى الخير ، ويلهم خشية الله التي لا صلاح للمجتمع ولا قوام للمدنية بغيرها ، ويحمل الإنسان على التهيؤ للصبر والاستعداد للأخرة ، ويخفف من غلواء الأنانية وحب الذات ، والتكالب على حطام الدنيا ، ويلهم الاقتصاد والسداد ، ويمنعه من الجهاد في غير جهاد .

وقد حكى الله قصة هذه الأمم التي غلب عليها الزهو والتهيه واستصغرت شأن الأنبياء المعوثين في عصرها ، الذين لم يشتهروا بامتياز في علم من العلوم السائدة فقال « فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم ، وحقا بهم ما كانوا به يستهزئون (١) » .

لا استغناء ولا استكبار بعد بعثة الرسول :

وهذه قصة كل أمة بلغت شأوا بعيدا في العلم والمدنية والصناعة والحكمة بعد بعثة الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ، وقد منعها استكبارها وزهوها واعتمادها الزائد على علومها وحضارتها وعلى أسانئذتها النوايع وعباقرتها الكبار من الإفادة من العلم الغزير الذي جاء به محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم والتمسك بأهدابه والسير في ركابه ، وقصة كل أمة معاصرة تمكنتها الإفادة من هذا الدين الخالد ومن هذا النور اللوضاء ، وستلقى هذه الأمم كلها جزاء هذا الاستكبار ونتيجة هذا الإنكار أو الاستغناء في تعفن حضارتها ، وانهار مدنياتها .

(١) غافر ٨٣ .

سعة ، وكان الملاح المجدف الأمل خير موضوع للدعابة والتنادر ، وخير وسيلة للتلهي وترويح النفس ، وخاطبه تلميذ ذكي جرىء وقال يا عم ماذا درست من العلوم ؟ قال ولا شيء يا عزيزي ! قال أما درست علوم الطبيعة يا عمي ؟ قال كلا ولا سمعت بها ! وتكلم أحد زملائه ، وقال : ولكنك لا بد درست علم الأقليدس والجبر والمقابلة ! قال وهذا أغرب ، وتصدقون أنى أول مرة أسمع هذه الأسماء الهائلة الغربية ، وتكلم ثالث « شاطر » فقال ولكني متأكد بأنك درست الجغرافية والتاريخ ؟ فقال وهل هما اسمان لبلدين أو علمان لشخصين ؟ وهنا لم يملك الشباب نفوسهم المرحة وعلا صوتهم بالتهقته ، وقالوا ما سنك يا عم ؟ قال أنا في الأربعين من سنن ! قالوا لقد ضيعت نصف عمرك يا عمنا ، وسكت الملاح الأمل على غصص ومضض وبقي ينتظر دوره ، والزمان دوار .

وهاج البحر وماج ، وارتفعت الأمواج ، وبدأت السفينة تضطرب والأمواج فاغرة أفواها لتبتلعها ، واضطرب الشباب في السفينة وكانت أول تجربتهم في البحر وأشرفت السفينة على الغرق وجاء دور الملاح الأمل فقال في هدوء ووقار ، ما هي العلوم التي درستوها يا شباب ؟ وبدأ الشباب يتلون قائمة طويلة للعلوم والآداب التي درسوها في الكلية ويتوسعون فيها في الجامعة من غير أن يفتنوا لغرض الملاح الجاهل الحكيم ، ولما انتهوا من عد العلوم المرعبة أسماؤها ، قال في وقار تميزه نشوة الانتصار ، لقد درست يا أبنائي هذه العلوم الكثيرة فهل درست علم السباحة ؟ وهل تعرفون إذا انقلبت هذه السفينة — لا قدر الله — كيف تسبحون وتصلون الى الساحل بسلام ؟ قالوا لا والله يا عم ، هو العلم الوحيد الذي فاتتنا دراسته والامام به ، هنالك ضحك الملاح وقال اذا كنت قد ضيعت نصف عمري فقد اتلقت عمركم كله ، لأن هذه العلوم لا تغني عنكم في هذا الطوفان ، انما كان ينجدكم العلم الوحيد ، هو علم السباحة الذي تجهلونه .

هذه قصة الأمم المتمدنة الراقية التي كانت دائرة معارف او موسوعة في العلوم والآداب ، وكانت زعيمة العالم كله في كل

وتقبض قريحتها بالشمع الرقيق الرائق ، والمعاني اللطيفة ،
والأخيلة البديعة .

وطائفة من علماء الألسن والفلسفة اللغوية والقواعد تتأمل في
اللغة التي يتكلم بها أهل المدينة فيبحثون في نشوئها وارتقائها
وتطورها وصلتها باللغات الأخرى ، ويبحثون عن الحلقات المنقودة
ويضعون معاجم ، ويؤلفون كتباً في قواعد اللغة ويضبطون كتابتها .

هذه كلها طوائف من أهل العلم لا يستهان بقيمتها ولا ينقص
من شأنها ، ولكل وجهة هو موليا ، ولكنها كلها على خطر لو لم
تعرف من الذي يحكم هذه المدينة وما نظام الحكم ، وما هي
القوانين السائدة التي يجب عليها كلها — على اختلاف نزعاتها —
الروضوخ لها ، وما هي جباية الرعوية أو التجنس بجنسية هذا البلد
أو المملكة ، وما هي الضرائب المفروضة على أهل هذه المدينة ،
وما هي قواعد المرور وقوانين الإقامة في هذا البلد ، الى غير
ذلك مما يتصل بالحياة الشريفة الشرعية في هذا البلد المنظم .

مهمة الأنبياء في هذه المدينة :

وتدخل طائفة كاملة المواهب صحيحة القوى ، لطيفة الحس ،
رقيقة الذوق ، لا تفقد شيئاً مما يتجمل به البشر ، ولكن همها
غير هم هذه الطوائف كلها ، ودعوتها ومنهجها غير دعوة هذه
الطوائف ومنهجها ، هي تهتدي — وبالأصح يهديها قيم هذا البلد
ويأخذ بيدها — الى مركز هذه المدينة والمدنية والى مصدر الحياة
والقوة والتنظيم في هذه المملكة المنظمة تتصل به رأساً وتتلقى
أحكامه وإشاراته ، وتبلغها الى جميع الطوائف وتتوسط بين ادارة
هذه المدينة وبين سكانها في التبليغ والدعوة ، ولاشك أن جميع
الطوائف مدينة لهذه الطائفة في حياتها واشتغالها بعلومها ومباحثها
في هدوء وسلام ، وان هذه العلوم كلها تنشأ وتزدهر في كنف هذه
المعرفة التي تحملها وتنشرها تلك الطائفة المقدسية وتعيش في
حمايتها وظلها ، فلولا هذه المعرفة ، ولولا هذه الطائفة لومتعت
الطوائف الأولى كلها فريسة الجهل ونقض القانون ، والقى القبض

الأقطار الإسلامية والعربية في خطر عظيم :

وشأن الأقطار الإسلامية والعربية في الاعراض عن هذه
التعليمات وهذا العلم الغزير الموجود والزهد في الاستفادة منه
والتهالك على الحضارة الغربية والقيم المادية والأوضاع الجاهلية
والفلسفات القومية أو الاشتراكية أغرب ، وهي على خطر
عظيم لا يدفعه شيء ، ولا تزال معاقبة بالفرقة والاختلاف
والفوضى والثورات والتحاسد والتباغض وعدم التعاون والاتحاد
وذهاب الريح والشوكة والهوان على العدو .

طوائف العلماء والباحثين في مدينة جديدة :

ومثل الأنبياء ومثل الطوائف الأخرى من أهل العلم والحكمة
والبحث والتحقيق كمثل مدينة عامرة ، زاهية منظمة ، يدخل
فيها طوائف مختلفة ذات الاختصاصات والاتجاهات المختلفة ،
فيدخل فيها طائفة موضوعها التاريخ فتبحث في تاريخ هذه المدينة
القديمة ، من أخطها ؟ ومتى قامت وعمرت وما مر بها من أحداث
وما تعاقب عليها من حكومات ؟

وطائفة من علماء الآثار فتدرس الألواح والحفائر والكتابات
المستخرجة من الأنقاض وعملية الحفر ، وتعين عصورها وتهدى
الى الحضارات العتيقة المندثرة والمدارس الدارسة والعادات
القديمة .

وطائفة صناعتها الجغرافية ، فهي تدرس حدود هذه المدينة
الى أين تنتهي وموقعها الجغرافي ، والجبال المحيطة بها ، المطة
عابها ، والأنهار التي تخترقها ومن أين تنبع .

وطائفة هوايتها الأدب والشعر فيستهويها جمال الطبيعة الساحر
والمناظر الجميلة الفاتنة ، والنسيم العليل الليل الذي يهب فيها
صباحاً ، والأزهار والرياحين التي تملأ حداثتها فتتهيج فيها الشعاعية ،

الى الجسد وكالعقل بالنسبة الى العمل ، وكالعين بالنسبة الى الانسان ، والدنيا بغيرهم — بعلومها وآدابها ومدنياتها وصنائعها — ظلام في ظلام في ظلام ، « ظلمات بعضها فوق بعض اذا اخرج يده لم يكذ يراها ، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور (١) » .

العامل الاساسى الاكبر فى صلاح البشرية وارتقاء المدنية :

وليس الانبياء — صلوات الله عليهم وسلامه — مصدر المعرفة الصحيحة وعلم اليقين فحسب ، بل هم الذين يمنحون الاجيال البشرية ثروة اخرى كذلك ، يرجع اليها الفضل فى صلاح البشرية كلها وفى ازدهار المدنية كلها ، وهى قوة كراهة الشر وحب الخير ، والتمرد على قوى الشر ونوازعها والانديفاع الى الخير والجهاد فى سبيله ، هذه القوة التى كانت العامل الاساسى الاكبر فى كل ما قام به البشر من مآثر وبطولات، ولم تنزل الرسائل والمواد والمؤسسات خاضعة دائما للارادة الانسانية والعزم القوى ، ان الشأن كل الشأن فى ان يريد الانسان الخير ، وكان منبع هذا الخير دائما تلقين الانبياء وتعليمهم ، هم الذين كانوا — فى كل عصر من عصور بعثتهم — يبعثون فى امتهم وفى جيلهم طبيعة حب الخير وكراهة الشر ، والانتصار للحق ومحاربة الباطل والفساد ، وكانت كلما ضعفت هذه الطبيعة وتحولت الطبيعة الانسانية طبيعة بهيمية او سبيعية — كما شاهدنا فى الامم التى قص الله علينا قصتها فى القرآن — عاجوها وحولوها الى طبيعة انسانية كريمة رقيقة ، ووجد — بتعليمهم الفاضل وجهادهم المتواصل ونسيانهم انفسهم ولذاتهم ومجازفتهم بأرواحهم ومهجهم وشرفهم — فى هذه الانعام السائمة والسباع الضارية .

عليها وزجت فى السجون ، وتحولت علومها وجهودها وانتاجها الى الاوهام والظنون ، او على الاقل الى العبث والمجون ، فان اساس جميع العلوم والاكتشافات والنظام الذى يربط هذه الوحدات هو معرفة المدبر والمنظم لهذه المدينة الواسعة والقطب الذى تدور حوله رحى الحياة فى هذا البلد ، وهى المعرفة التى اخصت بها الانبياء واخصت بهم « وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين (١) » .

أهم الواجبات واقدس المهمات :

وترون الخطاب اعظم اذا عرفتم ان الامر ليس امر الحاكم والمنظم فقط ، ان الحاكم والمنظم لهذا البلد — فى المثال الذى ضربناه — هو خالق هذا البلد الذى اخرج من العدم الى الوجود ، وانماض عليه الحياة ورزقه كل ما يحتاج اليه ويصلحه وهو الرازق ، وهو الجواد ، وهو الغفور الودود « هو الله الذى لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم . هو الله الذى لا اله الا هو ، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارئ المصور له الاسماء الحسنى ، يسبح له مافى السموات والارض ، وهو العزيز الحكيم (٢) » .

اذن كانت معرفته بكل العقل ومحبته بكل القلب وطاعته بكل الجوارح واجهاد النفس وبذل الوسع فى ارضائه ، والتقرب والتودد اليه أهم الواجبات ، واقدس المهمات ومقتضى الانسانية والبرورة ، ومطالبة العقل السليم والفطرة المستقيمة .

وهذا مركز النبوة والانبياء ووضع رسالتهم ومهمتهم بين مراكز الطوائف البشرية ورسالاتها ومهماتهما ، فهم كالروح بالنسبة

(١) النور ٤٠ .

(١) الانعام ٧٦ .

(٢) الحشر ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ .

النبوة والأنبياء إلا من هذه الزاوية ، ولا ينظرون اليهم إلا بهذا المنظار ، وقد بدأ بعض الكتاب الإسلاميين في العصر الأخير يخضعون في قليل أو كثير لهذه المفاهيم والظلال ، ويفسرون دعوة الأنبياء والرسول وأعمالهم بمصطلحات سياسية واجتماعية حديثة ، مما يحول بين أهل العصر وبين فهم منصب النبوة على حقيقة أو طبيعة الأنبياء وطبيعة رسالتهم التي يكلفون بها ، ومناهج عملهم ، ويمنع من الاقتداء بهم والتشبع بروحهم ، وينتج بالفكر على درب اقل ما يقال فيه أنه غير درب النبوة وشاكلتها .

الحاجة الى دراسة القرآن المجردة عن التأثيرات الخارجية :

لذلك اشتدت الحاجة الى دراسة القرآن في هذا الموضوع دراسة عميقة حرة ، مجردة عن التأثيرات الخارجية والثقافات الأجنبية ، مجردة كذلك عن ما قد تهواه قلوبنا وتطمح اليه نفوسنا ، وقد يكون مما يستحسن ولا يستهجن وقد يكون شيئاً طيبفياً ، ولكن لا يجوز أن يخضع القرآن وتخضع سيرة الأنبياء السابقين لكل ما يستحسن ، مجردة عن كل تقليد وعن كل تطبيق ، فالعصور تتبدل ، ومناهج الفكر تتبدل ، وقيم الأشياء ودرجاتها تتغير وتتبدل ، وترتفع وتنخفض ، وما حدث في عصر من نظرية أو مصطلح لا يجوز أن يسلط على عصر سابق أو جيل سابق ، فضلاً عن القرآن الذي هو كتاب سماوى خالد ، فانه لا يخضع لعصر ولا يخضع لفكر ، ولا يخضع لفلسفة فكرية أو سياسية ، وعلوم الانسان ونظرياته كتيب مهيل من رمل يتناثر وينبسط ، وينضوى ويمتد ، لا يصلح عليه البناء ولا يجوز أن ينزل عليه القرآن من منزلته العبالية السماوية ومن اساسه المحكم الابدى .

الفارق الاساسى بين الأنبياء والمرسلين ، والحكماء والمصلحين :

ان أول وأهم ما يمتاز به معشر الأنبياء ان العلم الذى ينشرونه بين الناس والعقيدة التى يدعون اليها والدعوة التى يقومون بها

المحاضرة الثانية

سمات النبوة وخصائص الأنبياء

اخوانى ! تحدثت اليكم في المحاضرة السابقة عن النبوة : حاجة الانسانية اليها وفضلها على المدنية ومهمتها ورسالتها في العالم ، واحب أن أتحدث اليكم في هذه الفرصة السعيدة عن طبيعة النبوة ومزاجها الخاص ، وعن خصائص الأنبياء وعما يمتازون به عن قادة الفكر وزعماء الاصلاح من طوائف البشر .

جناية الأساليب الصناعية والمصطلحات السياسية على فهم النبوة والأنبياء

لقد طفت الأساليب الصناعية والمناهج السياسية وطرق القيادة والتنظيم الحديثة ، ومناحى التربية والتعليم التى قامت ولا تزال بدورها في تعليم الأميين ، ورفع مستوى الحياة ، ومحاربة الفساد ، وتحريير البلاد ، وكل يذكر ويشكر ، ولكنها استولت على العقول والنفوس وانطبعت نفسية أصحابها وسيرتهم ومناخ قوتهم وعزائمهم ، ودوافع أعمالهم وجهادهم وأساليب تفكيرهم ومقاييس نجاحهم في نفوس الناس ، حتى أصبحوا لا يتصورون

يحدث تغييرا أو تبديلا أو تحويرا أو تعديلا في رسالته وأحكامه ، وقد قال لرسوله « قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسه ان اتبع الا ما يوحى الى ، انى أخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم (١) . » ونفى الله عند المداهنة وعصمه عنها فقال « ودوا لو تدهن فدهنون (٢) » وقد أنذره بالعقاب الأليم المخزى ، اذا تجنى على الله أو قال ما لم يقله أو زاد أو نقص شيئا من وحيه وكلامه ، فقال « تنزيل من رب العالمين . ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين (٣) » . وقد أمره بتبليغ الرسالة بنصها وفحصها ، وبرمتها وجملتها ، فقال « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس ان الله لا يهدى القوم الكافرين (٤) » .

وهذه هي السمة الفاصلة الأساسية المميزة بين الأنبياء صلوات الله عليهم وبين القادة والزعماء والذين تكون رسالتهم وكفاحهم وحي بيئتهم وثقافتهم ومشاعرهم واستجابة للقلق الذى يساور المجتمع ، ويساير النفوس الواعية ، والذين يلاحظون دائما البيئة والمجتمع والظروف والأحوال ، ويراعون المصلحة والسياسة ، ويخضعون لها فى كثير من الأحوال فيتنازلون عن أشياء كثيرة ، وقد يتساومون الأحزاب ويتبادلون معها المنافع ، ومبدأ كثير منهم الذى يأخذون به « درمع الدهر كيف هو دائر » .

الحكمة والتيسير فى دعوة الأنبياء وفى التشريع :

وليس معنى ذلك أن الأنبياء لا يراعون الحكمة والمصلحة مطاقا ، ولا يراعون طبائع الناس واستعدادهم ولا يتحرون لدعوتهم المكان الصالح والزمان الصالح ونشاط النفوس واقبال القلوب ، ولا يراعون التدرج والتيسير ، كلا ! ان كل ذلك مما

- (١) يونس ١٥ .
- (٢) القلم ٩ .
- (٣) الحاقة ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ .
- (٤) المائدة ٦٧ .

لا تنبع من ذكائهم أو حميتهم أو تألمهم بالوضع المزرى الذى يعيشون فيه ، أو من شعورهم الدقيق الحساس ، وقلبهم الرقيق الفياض ، أو تجاربهم الواسعة الحكيمة ، لا شئ من ذلك ، انما مصدره الوحي والرسالة التى يصطفون لها ويكرمون بها . فلا يقاسون أبدا على الحكماء أو الزعماء أو الصالحين ، وجميع أصناف القادة الذين جربتهم البشرية وتاريخ الإصلاح والكفاح الطويل ، والذين هم نتيجة بيئتهم ، وغرس حكمتهم ، وصدى محيطهم ، ورد فعل لما كان يجيش به مجتمعهم من فساد وفوضى ، والقول الفصل فى ذلك قول القرآن على لسان سيد المرسل صابى الله عليه وسلم « قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدرأكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون (١) » وقول الله تعالى : « وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدري بالكتاب ولا الايمان ، ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا ، وانك لتهدى الى صراط مستقيم (٢) » . وقال « وما كنت ترجو أن يلقى اليك الكتاب الا رحمة من ربك ، فلا تكونن ظهيرا للكافرين (٣) » وقوله بعدما ذكر من بعد الرسول عن البيئة التى حدثت فيها هذه الحوادث والوقائع التى يحكيها لقومه « وما كنت بجانب الطور اذا نادينا ولكن رحمة من ربك ، لننذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون (٤) » ويقول القرآن عن طبيعة الرسالة التى يختار لها الرسل وعن مبدئها ومصدرها « ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده ان أنذروا انه لا اله الا أنا فاتقون (٥) » .

لذلك لا يخضع الرسول لعوامل نفسية داخلية أو حوادث وقتية خارجية ، ولا يدير رسالته حيث دارت الأحوال والأوضاع وشاء المجتمع ، وقد قال الله تعالى عن رسوله الكريم « وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحي يوحى (٦) » ولا يستطيع أن

- (١) يونس ١٦ .
- (٢) الشورى ٥٢ .
- (٣) القصص ٨٦ .
- (٤) القصص ٤٦ .
- (٥) النحل ٢ .
- (٦) النجم ٣ - ٤ .

أيها الناس أن منكم متفرقين فمن أم منكم الناس فليجتوز ، فان خلفه الضعيف والكبير وذا الحاجة (١) » والنصوص في ذلك والشواهد أكثر من أن تحصى (٢) ، وهذا كله مستفيض متواتر من سيرته صلى الله عليه وسلم مفروض في سيرة الأنبياء السابقين للحكمة التي وصفهم الله بها « وآتيناها الحكمة وفصل الخطاب (٣) » « أولئك الذين آتيناها الكتاب والحكم والنبوة (٤) » .

ولكن كل هذا التيسر والتدرج ومراعاة الحكمة والمصلحة والنظر الى استعداد النفوس إنما هو في التعليم والتربية وفي المسائل الجزئية ومما ليس من العقائد ومبادئ الدين في شيء ، أما ما كان من العقائد والمبادئ والفرائض والنصوص وما يفرق بين الإيمان والكفر والتوحيد والشرك ، وكان من شعائر الإسلام وحدود الله فالأنبياء عليهم السلام ، على اختلاف عصورهم ، أصلب فيه من الحديد وأثبت عليه من الجبال ، لا يعرفون تنازلاً ، ولا يعرفون هواده ، ولا يرضون مساومة .

اخلاص الدين لله وافراد العبادة له :

والسمة الثانية هي أن الأنبياء عليهم السلام كان اول دعوتهم وأكبر هدفهم في كل زمان وفي كل بيئة هو تصحيح العقيدة في الله تعالى وتصحيح الصلة بين العبد وربّه ، والدعوة الى اخلاص الدين وافراد العبادة لله وحده ، وانه النافع الضار المستحق للعبادة والدعاء والاتجاه والتسك وحده ، وكانت حملتهم مركزة بوجهة الى الوثنية القائمة في عصورهم ، المثلة بصورة واضحة في عبادة الأوثان والأصنام والصالحين المقدسين من الأحياء والأموات ، الذين كان يعتقد أهل الجاهلية « ان الله قد خلع عليهم لباس الشرف والتأله وجعلهم متصرفين في بعض الأمور الخاصة ويقبل شفاعتهم فيهم بالاطلاق بمنزلة ملك الملوك يبعث

تقتضيه طبيعة الدين السمحة وحكمة الله البليغة وفترة الانبياء الحكيمة ، ونطقت به الآثار وشهدت به الحوادث وزخر به تاريخ التشريع وسيرة الرسول ، وقد قال القرآن « وقرآنا فرقتاه لنقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا (١) » ، وقال « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لثبت به مؤادك ورتلناه ترتيلا (٢) » ، وقد قال « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر (٣) » ، وقال « وما جعل عليكم في الدين من حرج (٤) » ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر أصحابه بالتيسر والتبشير ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تعسروا ، بشرا ولا تنفروا (٥) » ، وقال لأصحابه « إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين (٦) » ، وقد كان يرجئ تطبيق شيء به مصلحة جزئية لأجل مصلحة كلية هي أعظم وأهم منها ، فقال لعائشة رضي الله عنها : « لولا حداثة قومك بالكفر لنتقت البيت ثم لبنيته على أساس ابراهيم عليه السلام (٧) » وقال ابن مسعود رضي الله عنه « كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهة السامة علينا (٨) » وعن جابر بن عبد الله « كان معاذ بن جبل يصلي مع النبي صلى الله عليه وسلم ثم يرجع فيؤم قومه فصلى العشاء فقرأ البقرة فانصرف الرجل فكان معاذ ينال منه ، فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم فقال : فتان فتان ثلاث مرار (٩) » و « عن ابن مسعود قال قال رجل يا رسول الله انى لأتأخر عن الصلاة في الفجر مما يطيل بنا فلان فيها ، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما رأيت غضب في موعظة كان أشد غضبا منه يومئذ . ثم قال : « يا

- (١) الاسراء ١٠٦ .
- (٢) الفرقان ٣٢ .
- (٣) البقرة ١٨٥ .
- (٤) الحج ٧٨ .
- (٥) صحيح البخارى ج ٢ ص ٦٢٢ .
- (٦) صحيح البخارى ج ١ ص ٣٥ .
- (٧) صحيح البخارى ج ١ ص ٢١٥ .
- (٨) صحيح البخارى .
- (٩) صحيح البخارى .

(١) صحيح البخارى .

(٢) اقرأ الفصل النفيس « باب التيسر » في حجة الله البالغة لشيخ الإسلام ولى الله بن عبد الرحيم الدهلوى ج ١ .

(٣) ص ٢٠ .

(٤) الانعام ٨٩ .

على كل قطر ملكا ويقلده تدبير تلك المملكة في ما عدا الأمور العظام (١) .

وكل من له صلة بالقرآن ، وهو الكتاب المهيمن على الكتب السالفة ، يعرف اضطرابا وبداهة ان القضاء على هذه الوثنية والانكار عليها ومحاربتها وانقاذ الناس من براثنها كان هدف النبوة الأساسي ، ومقصد بعثة الانبياء وأساس دعوتهم ، ومنتهى أعمالهم وغاية جهادهم وقطب الرحى في حياتهم ودعوتهم ، حولها يدندون ومنها يصدرن واليها يرجعون ، ومنها يبدعون واليها ينتهون ، والقرآن تارة يقول بالاجمال « وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه انه لا اله الا انا فاعبدون (٢) » وتارة يقول بالتفصيل فيسمى نبيا نبيا ويذكر ان افتتاح دعوته كان بهذه الدعوة الى التوحيد فقال « لقد أرسلنا نوحا الى قومه اني لكم نذير مبين ، ان لا تعبدوا الا الله اني اخاف عليكم عذاب يوم اليم (٣) » « والى عاد اخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ان أنتم الا مفترون (٤) » « والى ثمود اخاهم صالحا ، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا اليه ان ربي قريب مجيب (٥) » « والى مدين اخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ، ولا تنقصوا الكيال والميزان ، اني اراكم بخير وانى اخاف عليكم عذاب يوم محيط (٦) » .

أما ابراهيم فدعوته الى توحيد الالهية ونبذ الأصنام والأوثان اوضح وأصرح ، ففي سورة الانبياء « ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . اذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين . قال لقد

كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين (١) » وفي سورة الشعراء « واتل عليهم نبأ ابراهيم . اذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون . قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين . قال هل يسمعونكم اذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون قال أفأرايتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون . فانهم عدو لى الا رب العالمين . الذى خلقنى فهو يهدين . والذى هو يطعننى ويسقن . واذا مرضت فهو يشفين . والذين يمينتى ثم يحيين . والذى أطمع ان يغفر لى خطيئتى يوم الدين (٢) » وفي سورة مريم « واذكر فى الكتاب ابراهيم ، انه كان صديقا نبيا اذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا (٣) » وفي سورة العنكبوت « وابراهيم اذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون . انما تعبدون من دون الله آوثانا وتخلقون افكا ، ان الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا ، فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له اليه ترجعون (٤) » وفيها « وقال انما اتخذتم من دون الله آوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين (٥) » .

وكذلك يوسف فقد جاء فى القرآن فى موعظته البليغة الحكيمه فى السجن « قال لا يأتىكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتىكما ، ذلكم ما علمنى ربى انى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون . واتبعت ملة آباءى ابراهيم واسحاق ويعقوب ما كان لنا ان نشرك بالله من شيء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر اناس لا يشكرون يا صاحبي السجن أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار . ما تعبدون

(١) الانبياء ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ،

(٢) الشعراء ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ،

٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ .

(٣) مريم ٤١ ، ٤٢ .

(٤) العنكبوت ١٦ ، ١٧ .

(٥) العنكبوت ٢٥ .

(١) التعبير منقول من حجة الله البالغة للإمام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى

(٢) الانبياء ٢٥ .

(٣) هود ٢٥ ، ٢٦ .

(٤) هود ٥٠ .

(٥) هود ٦١ .

(٦) هود ٨٤ .

من دونه الا أسماء (١) سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، ان الحكم الا لله أمر أن لا تعبدوا الا اياه ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون « (٢) وقد كانت هذه دعوة موسى لفرعون الذى كان يدعى أنه مظهر للشمس « الاله الأكبر » عند قدماء المصريين ، فيقول : « أنا ربكم الأعلى » وقد قال حين سمع دعوة موسى : « يا أيها الملأ ما علمت لكم من اله غيرى » . الآية (٣) وقال : « لئن اتخذت الها غيرى لأجعلنك من المسجونين » (٤) .

وقد سمى القرآن عبادة الأوثان الشرك الأكبر والرجس وقول الزور وشنع عليه التشنيع الأعظم فقال في سورة الحج « ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه ، وأحلّت لكم الأنعام الا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور ، حنفاء لله غير مشركين به ، ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق » (٥) .

الجاهلية الخالدة العالمية وجنابتها على البشر :

ان هذه الوثنية والشرك بمعنى التآله لغير الله وغاية التذلل له ، والسجود والدعاء والاستعانة والنذر والذبح له ، هي الجاهلية العالمية التى هي أقدم أدواء البشر ومواضع ضعفه وسقطته ، وهى باقية مع البشر فى جميع مراحل حياتهم وتطوراتها ،

(١) كلمة الاسماء تدل على أن معبوداتهم كانت اشخاصا مقدسة موهومة اما لا وجود لها أصلا كما يوجد فى نظام الشرك وعقائد المشركين كثيرا ، واما كان لها أصل ووجود ولكن ليس لها من الالهية والربوبية نصيب ، وكذلك قال هود لقومه ، « اتجادلوننى فى أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان » وذكر الاسماء دليل صريح على أن المعبودات كانت آلهة خيالية أو أصناما بأسماء الماضين .

- (٢) يوسف ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ .
 (٣) القصص ٣٨ .
 (٤) الشعراء ٢ .
 (٥) الحج ٣٠ ، ٣١ .

وهى التى تثير غضب الله وغيرته ، وتحول بين العبد وتقدمه الروحى والخلقى والمذنى ، وتهبطه من أعلى الدرجات الى أسفل الدرجات « لقد خلقنا الانسان فى احسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين (١) » تهبطه من درجة مسجود للملائكة الى درجة ساجد للضعيف من الخلوقات والخصيس من الموجودات ، انها هى الجاهلية التى تخنق القوى وتقتل المواهب وتقضى على الاعتماد على الله والاعتداد بالنفس والثقة بها ، وتصرف الانسان عن الالتجاء الى الله السميع البصير ، العليم القدير ، الجواد الوهاب ، الغفور الودود ، والاستفادة من صفاته التى لا تحصى وخزائنه التى لا تنفذ الى الانجاء الى الضعيف الفقير ، العاجز الحقير ، الذى لا يملك شيئا « يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ، ذلكم الله ربكم له الملك ، والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ؛ ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيمة يكفرون بشرككم ، ولا ينبئك مثل خبير . يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغنى الحميد » (٢) .

فهم الصحابة والعرب الأولين لكلمات القرآن ومصطلحاته :

هذه الوثنية (فى دائرة ما بعد الطبيعة) بجميع أشكالها الواضحة والدقيقة كانت موضوع جهاد الأنبياء فى كل عصورهم ، وفى جميع بيئاتهم ومجتمعاتهم ، وهو الذى أثار غضب أهل الجاهلية فقالوا : « أجعل الآلهة الها واحدا ان هذا لشيء عجاب . وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم ، ان هذا لشيء يراد . ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة ان هذا الا اختلاق » (٢) وما لا يشك فيه عاقل درس تاريخ العصر النبوى واطلع على أخبار صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ان الصحابة لم

- (١) النبين ٤ ، ٥ .
 (٢) فاطر ١٣ ، ١٤ ، ١٥ .
 (٣) سورة ص ٥ ، ٦ ، ٧ .

وصية للشباب والدعاة والكتاب :

أيها الشباب الأعزاء ستتخرجون في هذه الجامعة دعاء مصلحين ، وكتابا مؤلفين وقادة موجبين ، فأريد أن أوصيكم وصية هي عصارة تجارب ودراسات طويلة ، ولا تعرفون قيمتها وأهميتها إلا بعد التجربة الطويلة ، أياكم أن تعطى كتاباتكم وعرضكم للإسلام وحقائقه ومبادئه فكرة أن المسلمين ظلوا هذه القرون الطويلة في جهل متصل عن فهم هذا الدين الذي هو دين كل عصر وجيل ، وعن فهم القرآن ومصطلحاته وتعبيراته الأساسية ، لأن ذلك يثبت أن هذا الكتاب بقي هذه المدة الطويلة لا يفهم على حقيقته وأنه بقي مطويا على غرته ، وانقطعت الاستفادة منه بعد نزوله بمدة قصيرة ، وهذا لا شك يناقض قوله تعالى : « نانا نحن نزلنا الذكر وأنا له لحافظون » (١) والوعد بالحفظ في موضع الامتنان يستوجب الفهم والشرح والعمل والتطبيق ، فلا خير في كتاب يبقى ، لا يفهم ولا يعمل به ، وقد قال لرسوله « ان علينا جمعه وقرآنه فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم ان علينا بيانه » (٢) وهذا الأسلوب من التفكير الذي قد ينتجه اليه بعض الكتاب والمفكرين في هذا العصر يرمى هذه الأمة الخالدة الولود بالعمى والجدب الفكرى الدائم ، والشجرة التي بقيت أفضل مدة حياتها لا تعطى ثمارها ، غير جديرة بالاعتماد والاعتناء ، ولا يرجى منها الخير .

وذلك لا شك نتيجة ما نالته المعانى السياسية والمؤسسات السياسية والتنظيمات في عصرنا من الأهمية بتأثير النظم الحديثة والثقافات الحديثة ، وكل من يسعى لمجد المسلمين ويطمح الى سؤدهم وصلاح أحوالهم ويريد أن يسود النظام الإسلامى ويقوم الحكم الإسلامى في جميع أقطار المسلمين قد يقع في هذا التقريط والإمراط ، ولا شك أنها غايات سامية يجب أن يجند لها المسلمون والدعاة والمفكرون منهم بصفة خاصة مواهبهم وطاقتهم وأقلامهم ،

(١) الحجر ٩ .

(٢) القيامة ١٧ ، ١٨ ، ١٩ .

يكونوا يفهمون من هذه الآيات انى سردناها الا هذه الوثنية السافرة وعبادة الأصنام والأوثان ، وتقديس الأشخاص الماضين أو الموجودين والسجود لهم ، والدعاء منهم والذبح والندى لهم ، والطف بأسمائهم ، والتقرب الى الله بعبادتهم والاعتماد على شفاعتهم المطلقة التي لا ترد ، وطلب النفع والضر وكشف الكرب منهم ، ولا يفهمون من معنى الاله ، والرب ، والعبادة ، والدين ، الا هذه المفاهيم الدينية ، وهذا هو المستقيض المتواتر من آثارهم واخبارهم ومناهج كلامهم لا يختلف فيه اثنان .

ما يجب ان يكون الركن الأساسى في الدعوات الدينية وشعار الدعاة في جميع العصور :

ولا يزال هذا هو الركن الأساسى في الدعوات الدينية وحركات الإصلاح الى يوم القيامة ، وهو تراث النبوة الخالد ، « وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون » (١) وشعار جميع الدعاة الى الله وجميع المصلحين المجاهدين .

أما مظاهر الجاهلية الأخرى كالطاعة لغير الله والتحاكم الى غير الله وقبول التشريع غير الالهى ، وتسليم حكومة لا تقوم على النيابة عن الله ، وعلى أحكامه ، فكل ذلك يتبع هذه الوثنية والشرك ويأتى بعده ، ولا يجوز أن يقلل من شأن هذا الشرك الجلى المتقدم ذكره وأهميته وأن يوضع في الهامش من مناهج دعوة أو جهاد ، أو يساوى بينه وبين معانى الطاعة والحكم السياسية ويحكم عليها حكما واحدا ، أو يعتقد أنه من خصائص الجاهلية القديمة المحدودة المتخلفة التي ولى عصرها وانقضى دورها ، فان هذه اساءة الى دعوة الانبياء وجهودهم ، وشك في خلود القرآن وأنه هو الكتاب الأخير الدائم ، وشك في أن مناهج النبوة هو المنهاج الصحيح الذى ارتضاه الله تعالى ، والذي كتب له من النجاح والتوفيق والانتاج والأثمار ما لم يكتب لأى مناهج من مناهج الإصلاح .

(١) الزخرف ٢٨ .

ولكن يجب عليهم كذلك أن لا يخضعوا القرآن لهذه الغاية ، والنصوص الداعية الى هذه الغايات ، الحائثة عليها ، الموجبة لها ، وافرة كثيرة لا يحتاج معها الى هذا التأويل .

عقيدة الآخرة والاهتمام بها في سيرة الأنبياء ودعوتهم :

والسمة الثالثة من سمات النبوة وملاحم دعوتهم وشعائرها هو التشديد على جانب الآخرة والاهتمام بها والاشادة بذكرها والتنويه بشأنها تنويها يجعلها من النقط الأساسية في دعوتهم ، ويشعر كل من يعيش في أخبارهم وأحاديثهم ، ويتذوق كلامهم أن الآخرة دائما نصب أعينهم ، لا تزال ماثلة أمامهم بنعيمها وجحيمها وسعادتها وشقيقتها فهم الى الجنة في حين شديد ومن جهنم في فزع كبير ، وهو شيء طبيعي قد ملك عاينهم مشاعرهم واستولى على فكرهم ، وحسبنا أن نقرأ ما حكاه القرآن من قول ابراهيم وقد جاشت نفسه وفاضت عواطفه حين ذكر الآخرة وتمثل هولها وفزعها : « والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين . رب هب لي حكما والحقنى بالصالحين . واجعل لي لسان صدق في الآخرين . واجعلني من ورثة جنة النعيم . واغفر لأبي انه كان من الضالين . ولا تخزني يوم يبعثون . يوم لا ينفع مال ولا بنون . الا من أتى الله بقلب سليم . وأزلفت الجنة للمتقين . وبرزت الجحيم للفاوتين (١) » .

وكذلك ينظر اليها يوسف العزيز وهو في أوج أبهته وسيادته ، له الكلمة النافذة والأمر المطاع في مصر ، أرقى مملكة وأخصب بلاد في ذلك العصر ، وقد أقر الله عينه من أبيه الكبير وأسرته العزيزة ، وأقر أعينهم بما راوه من اقبال الدنيا على يوسف ، وقد كان في ذلك ما يرضى الطموح ويزهى على الهمة بعيد النظر ، ولكن فكرة الآخرة وحسن الختام هي التي تسيطر على يوسف وتجعله لا يحسب لهذه العظمة حسبا كبيرا ، فيقول شاكرا داعيا ،

(١) الشعراء ٨٢ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ .

راضيا وجلا « رب قد آتيتني من المالك وعلمتني من تأويل الأحاديث ، فاطر السموات والأرض ، أنت وليي في الدنيا والآخرة ، توفني مسلما والحقنى بالصالحين » (١) .

الحافز الحقيقي الى الدعوة وبذل النصح :

والإيمان بالآخرة وتمثل ما فيها ، من سعادة دائمة وشقاء دائم ، وما أعد الله فيها لعباده المؤمنين المطيعين من جزاء ، والكفار العصاة من عقاب ، هو الحافز الحقيقي الى دعوتهم وبذل نصحهم وهو الذي يقلقهم ويغير نومهم ويكدر صفو عيشهم ، ويجعلهم لا يهدأ لهم بال ولا يقر لهم قرار ، وهو حافز أقوى وأعظم سلطانا على نفوسهم مما يشاهدونه من اختلال النظام واضطراب الأحوال ، وما يشعرون به من الأخطار المحيطة بهذا المجتمع اذا انتشر فيه الفساد ، ويجعلون ذلك موجبا لدعوتهم وانذارهم وسببا لقلقهم واشفاقهم ، فيقول القرآن عن نوح وهو أول رسول يذكره القرآن بتفصيل « ولقد أرسلنا نوحا الى قومه انى لكم نذير مبين . أن لا تعبدوا الا الله انى أخاف عليكم عذاب يوم اليم » (٢) ويقول عن هود وهو من أقدم الأنبياء وقد بعث في قوم تهيأت لهم أسباب العيش وتوسعت لهم الدنيا وطابت لهم الحياة « واتقوا الذى أمركم بما تعلمون ، أمركم بأنعام وبنيين ، وجنات وعيون . انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » (٣) ويقول عن شعيب وقد بعث في قوم لان لهم العيش وانتشر في أرضهم الخصب « انى أراكم بخير وانى أخاف عليكم عذاب يوم محيط » (٤) .

(١) يوسف ١٠١ .

(٢) هود ٢٥ ، ٢٦ .

(٣) الشعراء ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ .

(٤) هود ٨٤ ، وفي روح المعانى « فالمراد عذاب يوم القيامة أو عذاب

الابتئصال في الدنيا » .

سيطرة هذه العقيدة على أتباع الرسل :

وقد تعدت هذه الفكرة ، بقوة تأثيرهم ، الى اتباعهم والمؤمنين ، بهم ، وتجلى لهم قصر مدى هذه الحياة وتقاهتها ، وعظمة الحياة الآخرة وخلودها ، وانها الجد الذى يجاهد فى سبيله المجاهدون ، ويسعى له العاملون ، ويتنافس فيه المتنافسون ، فقال مؤمن آل فرعون « يا قوم انما هذه الحياة الدنيا متاع وان الآخرة هى دار القرار . من عمل سيئة فلا يجزى الا مثلها ، ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ، يرزقون فيها بغير حساب » (١) وقال سحرة فرعون بعد لحظة من ايمانهم بموسى لما أوعدهم فرعون بالعذاب الاليم وما أدراكم به ؟ تقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، والتصليب فى جذوع النخل « قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض ، انما تقضى هذه الحياة الدنيا . انا آمننا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر ، والله خير وأبقى . انه من يأت ربه مجرما فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى . ومن يأتته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى . جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها . وذلك جزاء من تزكى (٢) » .

مناط الأمر الثواب والجزاء فى الآخرة :

والأنبياء يبعثون كل البعد عن أن يطمعوا أمتهم فى ملك أو سيادة أو منفعة دنيوية ، ويجعلونه ثمنا لايماتهم أو مكافأة لقبول دعوتهم ، بل بالعكس من ذلك ينكرون على حسب العلو والاستعلاء والاستيلاء على الناس بدافع حب الجاه والطموح الفردى أو القومى ، وقد جاء فى القرآن « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا ، والعاقبة للمتقين » (٧) انما

يطمعونهم فى رحمة الله ويخوفونهم من عذاب الله ، ويجعلون مناط الأمر الثواب والجزاء فى الآخرة ، انما يذكر أن هذا الايمان والطاعة والاستغفار يجلب رحمة الله ويستدر الرزق ، وينزل الأمطار ويدفع ما هم فيه من جذب وضيق ، فيقول نوح « فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا » (١) ويقول هود « يا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه ، يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة الى قوتكم ولا تتولوا مجرمين » (٢) وهذه طبيعة الايمان والاستغفار وسجيتهما التى لا تتخلف عنهما كطبائع الأشياء وخواص الأدوية ونواميس الفطرة .

سيرة الأنبياء وأصحابهم فى الزهد واينثار الآخرة على الدنيا :

ولم تكن دعوة الرسل الى الآخرة واينثارها على الدنيا والاستهانة بقيمة الدنيا ومتاعها دعوة باللسان فقط ، ودعوة لأمتهم فقط ، بل كان ذلك مبدعا ومنهاجا لحياتهم وكانوا من أول المؤمنين بها ، السائرين عليها فى حياتهم وخواصهم وعشيرتهم وقد قال شعيب معبرا عن جماعتهم كلها « ما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه » (٣) فكانوا زاهدين فى الدنيا مقبلين على الآخرة ، فقد زهدوا فى المناصب الكبيرة والمراكز الخطيرة ، وضحوا بها فى سبيل دعوتهم وفوتوا الفرص ، وكان أكثرهم من الذين لهم مستقبل زاهر فى الحياة والغد المضمون ، وكانوا من « اللامعين » فى المجتمع بذكائهم ونبوغهم وشرف أسرتهم وصلاتهم بالبلاط أو الأسرة الحاكمة ، وعن ذلك عبر قوم صالح ، اذ قالوا : « يا صالح قد كنت فينا مرجوا » (٤) وبذلك أخذوا أهل بيتهم وأسرتهم ، وقد قيل لسيد الرسل صلى

(١) نوح ١٠ ، ١١ ، ١٢ .

(٢) هود ٥٢ .

(٣) هود ٨٨ .

(٤) هود ٦٢ .

(١) المؤمن ٣٩ ، ٤٠ .

(٢) طه ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ .

(٣) القصص ٨٣ .

مطالبة بالإيمان بالغيب :

ومن سمات دعوة الأنبياء وصحفهم ، ومن ملامحها البارزة أنها تشدد على الإيمان بالغيب (١) وتجعله شرطا أساسيا للهداية والانتفاع بالدين ، وشعارا للمهتدين ، وعلامة للمتقين ، فقال : « ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب وقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » (٢) وتطالب به في قوة وشدة ، وتطلب من الذين يؤمنون بالله ويدخلون في الإسلام ، — هو دين جميع الأنبياء — أن يصدقوا بصفات الله العلية وقدرته الواسعة ، وأفعاله العجيبة التي تتحدى العقل الضعيف ، والعلم المحدود والتجارب القاصرة أحيانا ، ويصدقوا بكل ما جاء عن الرسل ، وذكر في الكتب السماوية مما لم يجربه البشر ، ولم يصدقته الحس ، ولم تألفه العقول ، اعتمادا على أخبار الرسل وحدهم ، وصدقهم في ما يروونه وينسبونه الى الله ، واعتمادا على أن الله على كل شيء قدير ، يخلق ما يشاء ويفعل ما يشاء ، وهو الخلاق المدبوع ، فعال لما يريد ، لا يحتاج الى الأسباب التي هو خلقها ، ولا يتقيد بسننه التي هو سننها ، لقد خلق الأسباب ، وسن السنن ، ولكنه لا يزال خالقها ومالكها والمتصرف فيها ، والحاكم عليها ، وأنه لم يفلت منه زمامها ، وهي لم تستقل بوجودها وأرادتها ، ولم يتوقف أمره على مقدمات ووسائل ، « إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » .

(١) قال العلامة أبو السعود في تفسيره ، الغيب هو ما غاب عن الحس والعقل غيبة كاملة بحيث لا يدرك بواحد منها ابتداء بطريق البداهة وهو قسمان : قسم لا دليل عليه ، وهو الذي أريد بقوله سبحانه تعالى ، « وعندده مخارج الغيب لا يعلمها الا هو » ، وقسم نصب عليه دليل كالصانع وصفاته ، والنبوات وما يتعلق بها من الأحكام والشرائع واليوم الآخر وأحواله من البعث والنشور والحساب والجزاء .

(٢) سورة البقرة ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ .

الله عليه وسلم « يا أيها النبي قل لأزواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها ، فتعالين امتعن واسرحكن سراجهن . وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكم أجرا عظيما » (١) وكان من تأثير صحبته أن أزواجه رضى الله عنهن كلهن آثرن الله ورسوله وآثرن الفقر والضييق مع الرسول على الرخاء وخفض العيش مع غيره ، ومعيشة النبي صلى الله عليه وسلم وحياته وحياة أهل بيته معروفة في التاريخ ، معروفة في السيرة النبوية ، ثمر العجب وتسحر النفوس ، ونملأ القلوب عظمة ومهابة ، وتنصب للدعاة والسائرين على منهاج النبوة منارا عاليا من نور وكان شعارها الدائم « اللهم لا عيش الا عيش الآخرة » (٢) ودعاؤها المقبول : « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا » (٣) .

الفرق بين منهج الدعوات النبوية وبين الدعوات الإصلاحية :

ولم تكن دعوة الأنبياء الى الإيمان بالآخرة أو الإشادة بها ، كضرورة خلقية أو كحاجة اصلاحية لا يقوم غيرها مجتمع فاضل ومدنية صالحة ، فضلا عن المجتمع الاسلامي ، وهذا وان كان يستحق التقدير والاعجاب ، ولكنه يختلف عن منهج الأنبياء وسيرتهم ومنهج خلفائهم اختلافا واضحا ، والفرق بينهما أن الأول — منهج الأنبياء — إيمان ووجدان ، وشعور وعاطفة ، وعقيدة تملك على الانسان مشاعره وتفكيره وتصرفاته ، والثاني اعتراف وتقدير ، وقانون مرسوم ، وان الأولين يتكلمون (عن الآخرة) باندفاع والتذاد ويدعون اليها بحماسة وقوة ، وآخرون يتكلمون عنها بقدر الضرورة الخلقية والحاجة الاجتماعية ، وبدافع من الإصلاح والتنظيم الخلقى ، وشكنا ما بين الوجدان والعاطفة ، وبين الخضوع للمنطق والمصلح الاجتماعية .

(١) الاحزاب ٢٨ ، ٢٩ .

(٢) صحيح البخارى .

(٣) صحيح البخارى .

سليمان ، وفهمه لحديث النمل ، ومطاوعة الرياح له ، وسرها به غدوها شهر ورواحها شهر ، وانتقال عرش ملكة سبا في طرفة عين ، وقصة ذى النون ، وخروجه من بطن الحوت ، وولادة عيسى الخارقة للعادة ، وهلاك أصحاب الفيل بحجارة من سجيل ، واسراء الرسول من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى (١) ، ومنه الى السماء ، الى غير ذلك مما زخر به القرآن والصحف السماوية ، ولا يقبله الا الايمان بالغيب ، الايمان الذى آمن بالله الذى وسعت قدرته كل شيء .

ذلك لأن الايمان الذى يقوم على الحس والتجربة ، ويسير مع المؤلف المعروف ، ويتقيد بالسنن الكونية والنواميس الطبيعية ، والحوادث التاريخية ، ويلجأ دائماً الى شهادة العقل ، والحواس الخمسة ، وقوانين العلوم الرياضية والمحسوسات ، انما هو ايمان مقيد مغلول ، وايمان محدود مشروط ، لا يصلح للاعتماد ، ولا يسائر الأديان ، ولا يتفق مع دعوة الأنبياء ، وما يطلبونه من تصديق مطلق وثقة دائمة وسرعة فى الانتقاد والطاعة ، وتفان فى الجهاد والتنضحية ، ولا يصلح فى الحقيقة لأن يسمى ايماناً ، انما هو علم وتطبيق وخضوع للمنطق ، وطاعة للحواس والتجارب ولا فضل فيه ، ولا يختص بالدين ، فكل عاقل فى حياته يؤمن بتجاربه ونتائج استقرائه ، وما تؤدى اليه حواسه ويرشده اليه عقله .

وصاحب هذا الايمان « الطبيعي » فى غناء وبلاء مع الكتب السماوية ، والأديان الالهية ، وفى صراع دائم مع روح الديانات ومطالبها وهو كما قال أحد العارفين (٢) : « رجل خشية لا تطاوع صاحبها فى سرعة المشى ورفع الخطأ بحرية وكثرة التنقلات والاتجاهات » ، وهو اما يلجأ الى التحريف أو التأويل البعيد .

وقد زخرت الكتب السماوية ، وزخر القرآن الكريم بعجائب صنع الله ، وبالعجرات والخوارق التى لا يصدقها ولا يسيغها ولا يحتملها الا الايمان بالغيب ، الايمان بقدره الله المطلقة ومشيئة الله القاهرة ، والاعتماد الكامل على صحة هذه الكتب ، وصدق الرسل الذين نزلت عليهم وأخبروا بها ، أما الايمان الذى لم يقم الا على الحس والتجربة ، والمألوف من الحوادث ، ومطابقة العقل الظاهر ، والعلم المدون فى الكتب ، فانه اما يرفض أن يقبله ويصدق به أو يتعثر ويتلحج فى قبوله والتصديق به ، أو يؤو له تأويلاً يتفق مع ما افه ، ولذلك قال : « بل ادرك علمهم فى الآخرة بل هم فى شك منها بل هم منها عمون (١) » وقد ذكر القرآن الفرق بين الفريقين ، فريق أكرمهم الله بالايمان الكامل وشرح صدره للاسلام ، وفريق ضاق عقله وصدره عن كثير مما جاء من الله ، وصور هذا الفرق تصويراً دقيقاً فقال : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنها يصعد فى السماء ، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون (٢) » .

وقد ذكر القرآن من صفات الله تعالى وأفعاله ما لا يقبل ولا يصدق الا بالايمان بالغيب ، ومن الوقائع والحوادث وآلاء الله وأيامه ، وأخبار الرسل وما أجرى على أيديهم من المعجزات ، وما أظهر لهم من الآيات ، ما لا يطيقه ولا يسيغه الا الايمان بالغيب ، وما لا يقبل التعليل العقلى ولا التطبيق بنواميس الطبيعة الا بتكلف شديد مضحك ، وخروج على قوانين اللغة العربية وجراءة على الله ، وتجن على اللغة وأبنائها ، ووقاحة شديدة (٣) ، كأنفلاق البحر لموسى وقومه ، وانفجار اثنتى عشرة عينا من الحجر بضرب موسى ، وارتفاع الجبل كالظلة على طائفة من بنى اسرائيل ، وحياتها بعد موتها ، ومسح فرق منهم قردة خاسئين ، وحية المقتول الذى جهل قاتله بضرب جزء من البقرة الذبوحه ، وتحول النار برداً وسلاماً على ابراهيم ، ومنطق الطير الذى علمه

(١) النمل ٦٦ .

(٢) الانعام ١٢٥ .

(٣) اقرا أمثلته الواضحة فى تفسير سيد أحمد خان ومحمد على اللاهورى .

(١) كل ذلك جاء فى القرآن صراحة فى سور كثيرة ومواضع عديدة .

(٢) هو الشيخ جلال الدين الرومى صاحب المثنوى المشهور .

وأما يضطر الى الإنكار والإلحاد ، بناء على الفجوة الواسعة بين هذا العلم الجديد والحقائق التي جاءت بها الرسل ، ونطقت بها الكتب ، وبين ما آمن به من المحسوسات والماديات والأصول التي هي مبنية على استقراء محدود ، فقال تعالى : « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، ولما يأتيهم تأويله (١) » .

أما المؤمن بالغيب ، المؤمن بقدره الله المطلقة وإرادته الحرة ، المصدق للرسل في كل ما جاءوا به ونطقوا به ، وأخبروا عن الله فهو في راحة وهدوء وانسجام ووثام مع روح هذه الديانات وأخبارها ، جاهد وفكر مرة ثم أستراح ، جاهد وفكر في الإيمان بالله وصدق الرسول وعصمته في ما يقول : « وما ينطق عن الهوى .. ان هو الا وحى يوحى » (٢) ثم آمن وإطمأن وصدق بكل ما جاء به الرسول ، وصح به النقل في سهولة ويسر ، كأنه كان منه على ميعاد وكان له على أتم الاستعداد .

وقد ذكر الله هذا الفرق بين النفسيتين ، نفسية المؤمن الذي أخضع عقله للصحيح من المنقول والثابت عن الرسول ، وبين نفسية الرجل الذي يحاول أن يخضع الكتاب وما جاء به الرسل لعقله العاجز وعلمه القاصر ، ويسلط عليه التأويل البعيد فقال : « هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وآخر متشابهات ، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله الا الله ، والراسخون في العلم يقولون آمنا به ، كل من عند ربنا وما يذكر الا أولو الأبواب . ربنا لا نزع قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب » (٣) . وذكر نفسية الرجل الذي تعود أن لا يؤمن وأن لا يدين وأن لا يعيش الا على المألوف المعروف الموافق لعقله ، الظاهر السطحى ، وشهوته ومصالحه فقال : « ومن الناس

من يعبد الله على حرف ، فان أصابه خير اطمأن به ، وان أصابته فتنة انقلب على وجهه ، خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين (١) » .

ان أدبنا الاسلامى ، مع الأسف ، ونظامنا التعليمى الدينى ، وأسلوب الدعوة قد قصر تقصيرا كبيرا فى الدعوة الى الإيمان بالغيب بإيمان وحماسة ، وتساهل فى دعمه وتغذيته والإلحاح عليه ، وقد اتجه بعض كتابنا المعاصرين — مع ما لهم من فضل فى عرض محاسن الإسلام وتقريبه الى الأذهان — الى صياغة عقلية جديدة للدين ، يتفق فيها مع العلم الحديث والعقلية الجديدة ، فجنى ذلك ، الى حد ومن غير ارادة ، على روح الإيمان بالغيب ، واعتاد الشباب الإسلامى المثقف أن لا ينشط الا للمألوف المقرر الواقع المتكرر فى الحياة الطبيعية ، أما ما شذ عنه وخرج عليه ، واحتاج فى تصديقه ، الى إيمان أعمق وأوسع ، واعتماد على صدق المخبر ، فانه لا يقبله الا على مضمض وجهه ، ولا ينشط له ولا يرحب به ، ويرى فى ذلك منافاة لما سمع وآمن به من أن الإسلام هو دين العقل ودين العلم ، ولا شك أن الإسلام كذلك ، ولا شك أن صحيح المنقول لا يناقض صريح المعقول ، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية : ولكن العقل الإنسانى طبقات ومستويات ، فمعقل البدوى ينكر ما زخرت به العواصم والمدن الكبيرة فى عصرنا من عجائب المصنوعات ومرافق المدنية ، وعقل العالمى ينكر ما وصل اليه الإنسان فى العصر الحديث من الاختراع والاكتشاف ، ومن تسخير الطاقات النووية والأقمار الصناعية ، وهكذا ، ثم ان أعلى ما يتصور من العقل النابغ له حدود يتقف عندها ورسالة يقتصر على أدائها ، ولا يكلف فوق طاقته ، يعجبني فى ذلك كلمة لنايفة العرب ، بل نابغة الدنيا فى فلسفة التاريخ وعوام العمران العلامة ابن خلدون قال رحمه الله :

« ولا تتقن بما يزعم لك الفكر من أنه مقتدر على الاحاطة بالكاينات وأسبابها ، والوقوف على تفصيل الوجود كله ، وسفه

(١) سورة الحج ١١ .

(١) سورة يونس ٣٩ .

(٢) سورة النجم ٣ ، ٤ .

(٣) سورة آل عمران ٧ ، ٨ .

كان قول آخر الرسل صلى الله عليه وسلم « قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكفنين : أن هو إلا ذكر للعالمين (١) » .
تصويرا لحال جميع أخوانه من الأنبياء والمرسلين السابقين صلى الله عليهم وسلم ، فهم دائما يخاطبون الفطرة السليمة والعقل العام بأسلوب فطري غير ذى عوج ، لا يتوقف فهمه على ذكاء نادر وعلم فائق والمعية بارعة ودراسة واسعة للعلوم ، وإحاطة بالصلوات العلمية ، ومعرفة المنطق والفلسفة والرياضيات والفلكيات وعلوم الطبيعة ، يفهمه العوام كما يتذوقه الخواص ، وينتفع به الجهلاء كما ينتفع به العلماء ، كل على قدر فهمه وطاقته ، ويطابق حال الأمم التي تعيش على فطرتها وسذاجتها ، كما يطابق حال الأمم المتمرنة المثقفة العالية ، ولا يثرون الأسئلة الدقيقة ولا يفترضونها ، إنما كلامهم كالماء الزلال السلسال الذي يسيفه كل واحد ويحتاج إليه كل واحد ، وقد أجاد شيخ الإسلام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي في الإشارة إلى هذه النكتة في كتابه الفريد « حجة الله البالغة » يقول رحمه الله :

« ومن سريتهم (الأنبياء) أن لا يكلموا الناس إلا على قدر عقولهم التي خالقوا عليها ، وعلومهم التي هي حاصلة عند غيرهم بأصل الخليقة ، وذلك لأن نوع الإنسان حيث ما وجد فله في أصل الخليقة حد من الإدراك زائد على ادراك سائر الحيوانات إلا إذا عصمت المادة جدا ، وله علوم لا يخرج إليها إلا بخرق العادة المستمرة كالنفوس القدسية من الأنبياء والأولياء ، أو بالرياضات شاقة تهيبه نفسه لإدراك ما لم يكن عنده بحساب ، أو ممارسة قواعد الحكمة والكلام وأصول الفقه ونحوها مدة طويلة .

« فالأنبياء لم يخاطبوا الناس إلا على منهاج ادراكهم الساذج المودع فيهم بأصل الخليقة ، وإم يلتفتوا إلى ما يكون نادر الأسباب قلما يتفق وجودها ، فلذلك لم يكلفوا الناس أن يعرفوا ربهم بالتجليات والمشاهدات ولا بالبراهين والقياسات ولا أن يعرفوه

رأيه في ذلك ، وأعلم أن الوجود عند كل مدرك في بادئ رأيه منحصر في مداركه لا يعدوها ، والأمر في نفسه بخلاف ذلك ، والحق من ورائه ، ألا ترى الأصم كيف ينحصر الوجود عنده في المحسوسات الأربع المعقولات ، ويسقط من الوجود عنده صنف السموعات ، وكذلك الأعمى أيضا يسقط عنده صنف المرئيات ، ولولا ما يردهم إلى ذلك تقليد الآباء والمشيخة من أهل عصرهم والكافة لما أتروا به ، لكنهم يتبعون الكافة في إثبات هذه الأصناف لا بمقتضى فطرتهم وطبيعة ادراكهم ، ولو سئل الحيوان الأعجم ونطق لوجدناه منكرا للمعقولات وساقطة لديه بالكلية ، فإذا علمت هذا فاعلم هناك ضربا من الإدراك غير مدركاتنا ، لأن ادراكنا مخلوقة محدثة ، وخلق الله أكبر من خلق الناس ، والحصر مجبول والوجود أوسع نطاقا من ذلك والله من ورائهم محيط ، فاتهم ادراكك ومدركاتك في الحصر ، واتبع ما أمرك الشارح به من اعتقادك وعملك ، فهو أحرص على سعادتك وأعلم بما ينفعك لأنه من طور فوق ادراكك ، ومن نطاق أوسع من نطاق عقلك ، وليس ذلك بقادح في العقل ومداركه ، بل العقل ميزان صحيح ، فأحكامه يقينية لا كذب فيها ، غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة ، وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الإلهية وكل ما وراء طوره ، فان ذلك طمع في محال ، ومثال ذلك مثال رجل رأى الميزان الذي يوزن به الذهب ، فطمع أن يزن به الجبال وهذا لا يدرك على أن الميزان في أحكامه غير صادق ، لكن العقل قد يقف عنده ولا يتعدى طوره ، حتى يكون له أن يحيط بالله وصفاته فانه ذرة من ذرات الوجود الحاصل منه (١) » .

البعد عن الأساليب الصناعية والاعتماد على الفطرة السليمة :

ومن سمات النبوة وخصائص الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ، البعد عن الأساليب الصناعية والتصنع والتكلف في حياتهم وسواكهم بصفة عامة ، وفي دعوتهم وكلامهم وحجتهم بصفة خاصة ، وقد

(١) سورة ص ٨٦ ، ٨٧ .

(١) مقدمة ابن خلدون ، علم الكلام ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

وأشار بقوله : « القبله ما بين المشرق والمغرب ، اذا استقبل الكعبة » الى وجه المسئلة ، وقال الحج يوم تحجون والفطر يوم تفترون ، والله أعلم « (١) .

وكذلك قال قبله حجة الاسلام الغزالي وهو يذكر فضل أسلوب القرآن على علم الكلام ، والفرق بينهما ، قال رحمة الله :

فأدلة القرآن مثل الغذاء ينتفع به كل انسان ، وأدلة المتكلمين مثل الدواء ينتفع به آحاد الناس ، ويستضر به الأكثرون بل أدلة القرآن كالماء الذي ينتفع به الصبي والرضيع ، والرجل القوى ، وسائر الأدلة كالأطعمة التي ينتفع بها الأقوياء مرة ويمرضون بها أخرى ، ولا ينتفع بها الصبيان أصلا « (٢) ، وقد قال الامام الرازي ، كما ينقل عنه شيخ الاسلام ابن تيمية كثيرا في كتبه ، لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفى غليلا ولا تروى غليلا ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ، ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي « (٣) .

وقد انقضت في هذا الموضوع لبعد الطبائع والعقول في هذا العصر عن فهم طبيعة النبوة وسماتها ومنهاج الانبياء وسيرتهم في الدعوة والبيان ، وفي حياتهم الخاصة وفي حياتهم مع الناس ، وطففت الأساليب الصناعية والمنهاج الكلامية وأساليب الدعوة والتنظيم الحديث حتى صار الناس في غفلة بل واستهانة بطريق الانبياء وسيرتهم والتوى عليهم فهم القرآن ولم يستطيعوا تذوق أساويه الحكيم ولجأوا الى تأويلات وتكلفات ، ولا تزال سيرة الانبياء في الدعوة هي السيرة المثالية ولا يزال أسلوب القرآن هو الأسلوب الفطري البايغ الحكيم ، الذي يقنع العقول ويفتح القلوب في كل عصر ، ويجد فيه كل جيل وكل طبقة البيان الوافي والدواء الشافي « تنزيل من حكيم حميد » .

(١) حجة الله البالغة ج ١ ص ١٣ طبع المنيرة القاهرة .

(٢) الجام العوام عن علم الكلام - الطبعة الميمية ص ٢٠ .

(٣) كتاب النبوات لابن تيمية ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

منزها عن جميع الجهات فان ذلك كالممتنع بالاضافة الى من يشتغل بالرياضات ، ولم يخالط المعقوليين مدة طويلة ولم يرشدوهم الى طرق الاستنباط والاستدلالات ووجوه الاستحسانات ، والفرق بين الأشباه والنظائر بمقدمات دقيقة المأخذ ، وسائر ما يتناول به أصحاب الرأي على أهل الحديث .

« ومن سيرتهم أن لا يشتغلوا بما لا يتعاق بتهديب النفس وسياسة الأمة ، كبيان أسباب حوادث الجو من المطر والكسوف والأهله وعجائب انبات والحيوان ومقادير سير الشمس والقمر وأسباب الحواث اليومية وقصص الانبياء والملوك والبلدان ونحوها ، اللهم الا كلمات يسيرة الفتها أسماعهم وقبلتها عقواهم يؤتى بها في التذكير بالاء الله والتذكير بأيام الله ، على سبيل الاستطراد بكلام اجمالى يسامح في مثله بايراد الاستعارات وبالمجازات » .

« ولهذا الأصل لما سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن كمية نقصان القمر وزيادته أعرض الله تعالى عن ذلك الى بيان فوائد الشهور ، فقال : « يسألونك عن الأهلة . قل هي مواقيت الناس والحج » وترى كثيرا من الناس فسد ذوقهم بسبب الألفة بهذه الفنون او غيرها من الأسباب فحملوا كلام الرسل على غير محمله والله أعلم « (١) .

وقال في ضمن بيان أسباب التيسير في هذا الكتاب .

« ومنها أن الشارع لم يخاطبهم الا على ميزان العقل المودع في أصل خلقتهم قبل أن يتعاونوا دقائق الحكمة والكلام والأصول ، فأثبت لنفسه جهة فقال « الرحمن على العرش استوى » وقال النبي صلى الله عليه وسلم لامرأة سوداء أين الله ؟ فأشارت الى الأسماء ، فقال هي مؤمنة ! ولم يكلفهم في معرفة استقبال القبلة وأوقات الصلاة والأعياد وحفظ مسائل الهيئة والهندسة ،

(١) حجة الله البالغة ج ١ ص ٨٦ طبع المنيرة القاهرة .

أغراضهم ، وقد جر عليها جهل هؤلاء القادة حيناً وعدم اعتصامهم من الخطأ والضلال وسوء الفهم وسوء التعبير أحيانا ، والشهوات التي ركبوا عايتها ، والنزعات والأنانية ، الفردية والقومية ، والعصبية الجنسية والوطنية ، قد جر كل ذلك على الإنسانية البائسة شقاء طويلا وويلا عظيما ، وأمقد الثقة بقيادتهم ، وشكك تشكيكا كبيرا في اخلاصهم وصحة معلوماتهم وحسن قصدهم وسعادة الإنسانية تحت قيادتهم واشرافهم ، والتاريخ الإنساني ملئء بهذه المآسى والمهازل ، والمضحكات المبكيات ، ولا تزال شعوب كثيرة في الشرق والغرب تحت رحمة هؤلاء القادة الأغمار العابثين ، يلعبون بها ويتداولونها كالكرة ويجرون عليها عمليات وتجارب جديدة كثيرة ، قد يعترفون بخطئها واخفاقتها بعد قليل ، وقد يفضحها ويزيل عنها الستار ، من يتسلم القيادة منهم ويخلفهم ، وقد يسجل عايتها ذلك التاريخ وتشعر به الأجيال الآتية .

المحاضرة الثالثة

أمه الهدى وقادة الإنسانية

الحاجة الى الأتياء المعصومين عن الخطأ :

وشر هذه التجارب المخففة والنتائج الخاطئة ما كان في باب العقيدة والإيمانيات التي يتوقف عليها المسير ، وتتوقف عليها السعادة في الدنيا ، والنجاة في الآخرة والتي تشكل الأخلاق الصحية وتكون المدنية الصالحة ، والعبادات التي يتقرب بها الإنسان الى ربه والشرائع التي تنظم حياته ، فالعثرة في ذلك لا تقال ، والكسر في ذلك لا يجبر .

فمست الحاجة الى قادة أمناء معصومين من الضلال والأوهام والأخطاء ، مبرنين من كل طمع ومساومة وطلب مكافأة ومقابل وريح مادي ، لا تتغلب عليهم الشهوات ، ولا تؤثر فيهم النزعات لا يصدر عن رأيهم ومعلوماتهم الناقصة ، وتجاربهم القاصرة ومصالحهم الخاصة ، وإذا صدر منهم خطأ في الاجتهاد والتقدير ، نبههم الله على ذلك فلم يكتبوا عليه ولم يتمادوا فيه .

عبث القادة والزعماء بالإنسانية :

لم يزل الجيل البشري في تاريخه الطويل موضوع عبث العابثين من القادة والزعماء ، أو تجربة المجرمين والمجازفين من المشرعين والحكماء ، وقد عبثوا بأبناء جنسهم وعقليتهم ومدنييتهم عبث الوليد بجانب القرطاس⁽¹⁾ يطويه وينشره ، ويمده ويكوره ، ويمزقه اذا شاء ، ويحرقه اذا شاء ، وهانت عليهم الحياة الإنسانية وطاقتها ، وملكانتها ومواهبها ، وما أودع الله فيها من طبيعة الطاعة والتقليد والتفاني والاعتماد على القادة ، فلم يتقوا الله فيها ولم يراعوا فيها حقا ولا حرمة ، ولا الا ولا ذمة ، واتخذوها مطية لشهواتهم ونزعاتهم ، وقنطرة الى سيادتهم ورياستهم وتحقيق

(1) مأخوذ من شعر البحترى :

عبث الوليد بجانب القرطاس

ان الخطوب طوينتى ونشرنتى

أمانة واخلاص :

ولذلك تقرا في سورة الشعراء ، أن كل نبي يبعث على أمته يؤكد لهم أمانته واخلاصه واقرؤوا معي الآيات التالية :

١ - « كذبت قوم نوح المرسلين . اذ قال لهم أخوهم نوح الا تتقون . انى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين (١) » .

٢ - « كذبت عاد المرسلين . اذ قال لهم أخوهم هود الا تتقون . انى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين » (٢) .

٣ - « كذبت ثمود المرسلين . اذ قال لهم أخوهم صالح الا تتقون . انى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين » (٣) .

٤ - « كذبت قوم لوط المرسلين . اذ قال لهم أخوهم لوط الا تتقون . انى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين » (٤) .

٥ - « كذبت أصحاب الأيكة المرسلين . اذ قال لهم شعيب الا تتقون . انى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين » (٥) .

هذه الوحيدة التى تربط بين هؤلاء الأنبياء المبعوثين فى أهم

مختلفة وفى عصور مختلفة ذات معنى عميق ، وهو أن الأمانة وهى الكلمة الجامعة بين معانى الصدق وصحة التلقى من فوق ، التلقى من الله العليم الحكيم ، وصحة اللقاء الى أسفل ، الى الأمة التى يبعث فيها النبى ، هو الركن الأساسى فى مفهوم النبوة والرسالة ونظامها ، ولا أجمع لهذه المعانى ولا أبلغ من كلمة « الأمانة » فى لغة العرب ، وقد شاعت الحكمة الإلهية أن يوصف بها الرسول العربى صلى الله عليه وسلم قبل البعثة وألهمت أهل مكة الأيمن أن يلتبوه بالصادق الأيمن .

وكذلك الاخلاص والنزاهة والبعد من كل طمع والزهد فى كل منفعة شخصية أو منفعة ترجع الى الأسرة والعشيرة والأولاد ، وقد انفقت الفطر السليمة والعقول المستقيمة على حب هذا الداعية المخلص ، الناصح الأيمن ، ولذلك قال صالح ، فى أسف واستغراب « يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين » (١) . وقال الموجه الكريم الذى جاء من أقصى المدينة يسعى « يا قوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون » (٢) .

وهذا هو المعنى الذى اكده موسى عليه السلام لفرعون فقال « وقال موسى يا فرعون انى رسول من رب العالمين . حقيق على أن لا أقول على الله الا الحق ، قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل (٣) » .

أمان وضمنان للاتباع :

وقد كان فى هذه « العصمة » والأمانة والنزاهة ، انتى اتصف بها الأنبياء ضمنان لسلامة أتباعهم وأمتهم فى العقائد والشرائع ،

(١) الاعراف ٧٩ .

(٢) سورة يسين ٢٠ ، ٢١ .

(٣) الاعراف ١٠٤ ، ١٠٥ .

(١) الشعراء ١٠٥ — ١٠٦ .

(٢) الشعراء ٢٣ — ١٢٧ .

(٣) الشعراء ١٤١ — ١٤٥ .

(٤) الشعراء ١٦٠ — ١٦٤ .

(٥) الشعراء ١٧٦ — ١٨٠ .

وأمان مما استهدفت له الأمم والأجيال البشرية الماضية من الوقوع في المهالك ، والتورط في الشبهات ، والاحيرة في أمر هؤلاء القادة ونتيجة اتباعهم .

حقيقة العصمة وطرقها :

يقول شيخ الاسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي في كتابه « حجة الله البالغة » وهو يذكر ما يجب أن يتصف به هداة السبل ومقيمو الملل — يعنى الأنبياء — سلام الله عليهم ، يقول رحمه الله :

« ثم لا بد له لهذا العالم أن يثبت على رؤس الأشهاد أنه عالم بالسنة الراشدة وأنه معصوم فيما يقوله من الخطأ والاضلال ، ومن أن يدرك حصة من الاصلاح ويترك حصة أخرى لا بد منها ، وذلك ينحصر في وجهين ، أما أن يكون راويا عن رجل قبله انقطع عنده الكلام لكونهم مجتمعين على اعتقاد كماله وعصمته وكون الرواية محفوظة عندهم ، فيمكن له أن يؤاخذهم بما اعتقدوه ويحتج عليهم ويفهمهم أن يكون هو الذى انقطع عنده الكلام وأجمعوا عليه ، وبالجملة فلا بد للناس من رجل معصوم يقع عليه الاجماع يكون فيهم أو تكون الرواية محفوظة عندهم وعلمه بحالة الانقياد وتوليد هذا السنن منها ووجوه منافعها وعلمه الآثام ووجوه مضارها لا يمكن أن يحصل بالبرهان ولا بالعقل المتصرف في المعاش ولا بالحس ، بل هي أمور لا يكشف عن حقيقتها الا الوجدان ، فكما أن الجوع والعطش وتأثير الدواء المسخن أو المبرد لا يدرك الا بالوجدان . فكذلك معرفة ملاءمة الشيء للروح ومباينته لها لا طريق اليها الا الذوق السليم ، وكونه مأمونا عن الخطأ في نفسه انما يكون بخلق الله علما ضروريا فيه بأن جميع ما أدرك وعلم حق مطابق للواقع بمنزلة ما يقع للمبصر عند الإبصار ، فانه اذا أبصر شيئا لا يحتمل عنده أن يكون عينه مؤقتة وأن يكون الإبصار على خلاف الواقع ومنزلة العلم بالموضوعات اللغوية ، فان العربى مثلا لا يشك أن الماء موضوع لهذا العنصر وإفظ الأرض لذلك مع انه لم يقم له على ذلك برهان وليس بينهما ملازمة

عقلية ، ومع ذلك فانه يخلق فيه علم ضرورى ، وانما يحصل ذلك في الأكثر بأن يكون لنفسه ملكة جبليّة ، يكون بها تلقى العلم الوجدانى على سنن الصواب دائما ، وأن يتتابع الوجدان ويتكرر تجربة صدق وجدانه ، وعند الناس (١) ، انما يكون بأن يصحح عندهم بأدلة كثيرة برهانية أو خطابية أن ما يدعو اليه حق ، وأن سيرته سالحة يبعد عنها الكذب ، وأن يروا منه آثار القرب كالمعجزات واستجابة الدعوات ، حتى لا يشكوا أن له في التدبير العالى منزلة عظيمة وأن نفسه من النفوس القدسية اللاحقة بالملائكة ، وأن مثله حقيق بأن لا يكذب على الله ولا يباشر معصية ثم بعد ذلك تحدث أمور تؤلفهم تأليفا عظيما وتصيره عندهم أحب من أموالهم وأولادهم ، والماء أنزال عند العطشان ، فهذا كله لا يتحقق انصباع أمة من الأمم بالحالة المقصودة بدونه ، ولذلك لم يزل المشغولون بنظائر هذه العبادات يسندون أمرهم الى من يعتقدون فيه هذه الأمور ، أصابوا أم أخطؤوا والله أعلم (١) .

جديرون بالطاعة والاتباع :

ان هذه الجماعة التى هذا شأنها في العصمة وصحة العلم ، وهذه منزلتها من الأمانة والاخلاص والنزاهة ، وقد أفرغها الله في قالب من الاعتدال والسداد ، ورباها فأحسن تربيتها ، وأدبها فأحسن تأديبها « ولتصنع على عيني (٢) » « أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ، وأنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار » (٣) ، هي الجديرة الخليفة — بحكم العقل والذوق والمنطق — بالطاعة والافتداء

- (١) أى كونه مأمونا من الخطأ عند الناس ، يكون اذا صح عندهم أن ما يدعو اليه حق الخ .
- (٢) حجة الله البالغة « باب الحاجة الى هداة السبل ومقيمو الملل » ج ١ ص ٨٣ ، ٨٤ .
- (٣) طه ٣٩ .
- (٤) سورة ص ٤٥ ، ٤٧ .

سر تفضيل عادات وأوضاع على عادات وأوضاع ، وحقيقة الشعائر :

وهذا السر ما تسميه الشريعة بخصال الفطرة وسنن الهدى ، وتشيد بها وتحث على الأخذ بها ، ومجموع هذه الأخلاق والعادات يحدث انصبغا بصفتهم وهي الصبغة التي يقول الله عنها : « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون » (١) ، وهذا سر تفضيل الله عادة على عادة وخلقا على خاق ، ووضعاً على وضع ، وهيئة على هيئة ، وهذا سر ما تتخذه الشريعة الإسلامية شعاعاً لأهل الإيمان ولأهل الطاعة وسنة موافقة للفطرة ، وصده علامة للانحراف وشعاراً لأهل الجهل والسفاهة ، ولأهل الجاهلية والكفر ، ولا فرق بينهما ، إلا أن الأول كان شعاراً للأنبياء ومن عاداتهم واختيارهم ، وفيه تشبه بهم ، والثاني شعار لأهل الكفر وعادة من عادات الجاهلية ، ومن أوضاع الشيطان وأتباعه وتشبه بهم ، ويندرج تحت هذا الأصل كثير من آداب الأكل والشرب واللباس والزينة ، والنوم والعشرة والاختلاط وهو باب واسع من أبواب السنة وفقه الدين .

لماذا كانت اليد اليمنى أفضل من اليسرى وخصت بالأعمال الفاضلة المستجادة كالأكل والشرب والإشارة وتناول شيء ذي بال واعطائه ، وكل ما فيه إكرام ، وخصت اليسرى بالاستبراء وكل ما فيه لوث واهانة ؟ وكلتا اليدين للإنسان وكلتا اليدين من خلق الله وصنعه ؟ وكثير من الأمم الجاهلية ، ومن نشأ بعيداً عن تربية الأنبياء وتعليماتهم لا يفرق بينهما ، ولا يلتزم هذا الأدب ، ويضع أحدهما موضع الأخرى ؟ لا سبب لذلك إلا أن الأنبياء عامة — ورسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة — كانوا يفعلون ذلك بالهام من الله أو بسائق من فطرتهم السليمة ، التي كانت دائماً على اتصال ومناسبة بما يرضيه الله تعالى من الأخلاق والعادات والأوضاع ، ولماذا كان التيمن محموداً مطابقاً للفطرة السليمة ومن شعائر الحضارة الإسلامية ؟ لأنه كان من

(١) البقرة ١٢٨ .

والتقليد والاتباع ، ولذلك قال الله تعالى بعد ما ذكر جماعة من أنبيائه المكرمين ، وذكر ما أكرمهم به من الهداية والصلاح والفضل على العالمين ، والاجتهاد والكتاب والحكم والنبوة « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده (١) » .

محط العناية والرضا :

لقد أحاطت العناية الإلهية والقبول الرحمانى بنفوس الأنبياء ، والحياة التي كانوا يعيشونها ، وشملت أخلاقهم وعاداتهم وسننهم وطرق معيشتهم ، واختار الله طريق حياتهم من بين طرق الحياة وأخلاقهم من بين أخلاق الناس ، وعاداتهم من بين العادات الكثيرة التي تعودها الناس ، حتى إذا سلكوا شعباً ووادياً ، وسلك الناس شعباً ووادياً ، كان شعبهم وواديهم أحب إلى الله من شعب الناس وواديهم ، ونفذت فيهم وفي كل ما اختاروه وأصبح لهم شعاراً وبهم خاصاً محبة الله ورضاه ، حتى أصبح تقليدهم واتباعهم واتخاذ شعاراتهم وشعائرهم والتخلق بأخلاقهم والتشبه بهم ، أقرب الأسباب وأقرب الطرق وأيسرها بجلب محبة الله ، وصار من اتباعهم وتشبه بهم من المحبوبين ، فضلاً عن أن يكون من المحبين ، لأن التشبه بالحبيب حبيب وبالبعيضي بغيض ، وأصبح ذلك أصلاً من الأصول والقانون الذي لا يتبدل ولا يتغير على مر الزمان ، واختلاف المكان ، وأصبحت الدعوة إليه عامة وعلانية ، وأعلن الله تعالى على لسان خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ، ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم » (٢) ، وبالعكس من ذلك كان الميل إلى الظالمين والكفار وإيثار طريقتهم والسير بسيرتهم جالباً لسخط الله والبعد عنه ، فقال : « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ، وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون » (٣) .

(١) الانعام ٩٠ .

(٢) آل عمران ٣١ .

(٣) هود ١٢٨ .

سنة الأنبياء عليهم السلام ومن عادات الرسول صلى الله عليه وسلم وذوقه ، فمن عائشة قالت : كان النبي صلى الله عليه وسلم يحب التيمن ما استطاع في شأنه كله ، في ظهوره وترجله وتعاله (١) .

وعلى ذلك تقاس جميع خصال الطهارة وخصال الفطرة التي نسبت في الحديث الى سيدنا ابراهيم صلى الله عليه وسلم .

مؤسسو حضارة واسلوب خاص من الحياة :

ان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، لم يدعوا الى عقيدة وشريعة فحسب ولم يحملوا ديناً جديداً — هو الإسلام — فحسب ، بل كانوا مؤسسي حضارة ومدنية وعشرة واجتماع واسلوب من الحياة جديد خاص ، جدير بأن يسمى الحضارة الربانية ، ولهذه الحضارة أصول ودعائم وعلامات وشعائر ، تمتاز بها عن الحضارات الأخرى ، الحضارات التي تسمى الحضارات الجاهلية ، امتيازاً واضحاً ، امتيازاً في الأساس ، وفي الروح ، وفي الأشكال والتفاصيل .

حضارة ابراهيمية محمدية :

وكان ابراهيم الخليل الحنيف صلى الله عليه وسلم امام هذه الحضارة الحنيفية المؤسسة على توحيد الله تعالى والايان به وذكره ، المؤسسة على متابعة الفطرة السليمة والقلب السليم ، المؤسسة على الحياء والأدب مع الله ، والأتانة والرحمة على بنى النوع ، ورقة العاطفة ، وقد سرت أخلاقه في هذه المدنية ومنهج الحياة « ان ابراهيم لحليم أوامه منيب » (٢) « ان ابراهيم لأواه

(١) صحيح البخارى .

(٢) هود ٧٥ .

حليم» (١) . وكان ابراهيم ولا يزال مؤسس هذه الحضارة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو حفيده مجدد هذه الحضارة وتمامها ، وهو الذى بعث فيها الروح وأفاض عليها الخلود وأرسى قواعدها ، وشهد بنيانها وجعلها خالدة باقية ، عالية .

خصائص هذه الحضارة وسماتها :

« ان هذه الحضارة الابراهيمية المحمدية ، لا تعرف الوثنية والشرك ولا تسمح به في لون من الألوان ، في أى مكان وزمان ، فكان أعظم دعاء ابراهيم وأكبر همه « واجنبى وبنى أن نعبد الأصنام » (٢) ، وكان أكبر وصيته ودعوته للأمم والأفراد جميعاً « فاجتنبوا الرجس من الأوثان ، واجتنبوا قول الزور . حنفاء لله غير مشركين به » (٣) .

انها لا تعرف التهاك على الشهوات والتكالب على حطام الدنيا والتناحر على جيف المادة والتقاتل في سبيل الحكومات والمناصب ، انها دعوة لم تزل عقيدتها « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين » (٤) .

انها حضارة لا تعرف الفصل بين الإنسان والإنسان ، والتمييز بين الألوان والأوطان « فالناس كلهم من آدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى الا بالتقوى » « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم » (٥) « وقد قال خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم « ليس منا من دعا الى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية » (٦) وقال

(١) التوبة ١٤ .

(٢) سورة ابراهيم ٢٥ .

(٣) الحج ٣٠ ، ٢١ .

(٤) القصص ٨٣ .

(٥) سيرة ابن هشام .

(٦) رواه أبو داود .

الاجلال المنبعث من اعماق القلب والحب العاطفى :

والقرآن يطلب للأنبياء الاجلال المنبعث من اعماق القلب والتوقير والتبجيل العميق والحب العاطفى ولا يكتفى بالطاعة المجردة من كل عاطفة وحب واجلال ، كطاعة الرعية والسوقة للملوك وكثير من قادة الجنود وزعماء الأحزاب ، ولا يكتفى بدفع الضرائب وتنفيذ الأحكام ، فقال : « لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه (١) » وقال « فالذين آمنوا به وعزروه (٢) » ولذلك أمر بكل ما يحفظ لهم حرمتهم واحترامهم ، ونهى عن كل ما يحط مكانتهم ويجرح كرامتهم ، ويهون شأنهم ويفقد مهابتهم ، فقال « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ، أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون . ان الذين يفضون أصواتهم عند رسول الله ، أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ، لهم مغفرة وأجر عظيم (٣) » وقال « لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا (٤) » ولذلك حرم زواج أزواجه من بعد وفاته فقال « وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ، ولا تتكحوا أزواجه من بعده أبدا ، ان ذلكم كان عند الله عظيما (٥) » .

وقد جاءت النصوص الصريحة الكثيرة تطلب حب الرسول وإيثاره ، على النفس والأهل والولد ، فقد جاء فى الصحيحين : لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين » وكذلك « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الايمان . من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، الحديث » .

تأثير عاطفة الحب وسر تفانى الصحابة فى طاعة الرسول :

لان الطاعة الكاملة المخصصة والتخلق بأخلاق الرسول والانصباغ

- (١) الفتح ٩ .
- (٢) الاعراف ١٥٧ .
- (٣) الحجرات ٢ .
- (٤) النور ٦٣ .
- (٥) الاحزاب ٥٣ .

لن هتف بالانصار ومن هتف بالمهاجرين : « دعوها فانها مننته » (١) .

انها حضارة تعرف فى العقيدة بالتوحيد ، وفى الاجتماع باحترام الانسانية والمساواة بين افرادها ، وفى دائرة الاخلاق والمنهج بتقوى الله والحياء والتواضع ، وفى ميدان الكفاح بالسعى للأخرة والجهاد لله ، وفى ساحة الحرب بالرحمة والعاطفة الانسانية ، وفى أنواع الحكومات بترويج جانب الهداية على جانب الجباية ، وفى الخدمة على الإستخدام ، تعرف فى التاريخ بخدمة الانسانية المخلصة ، وانتاذاها من برائن الجاهلية ، والدعوات ، المضلة الطاغية وفى العالم بآثارها الزاهرة الزاهية وخيراتها المنتشرة للباقية .

انها حضارة عجنت مع اسم الله ومراقبته ، وصبغت بصبغة الله وقامت على أساس الايمان فلا يمكن تجريدتها عن الطابع الدينى واللون الربانى والروح الايمانى (٢) .

دعوة القرآن الى اتباع الانبياء وحثه على تقليدهم :

ان القرآن يدعو الى اتباع الانبياء والأخذ بسيرتهم والسير على منهجهم العام فى الحياة والتشبه بهم ما أمكن فيقول : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيرا » (٣) ويأمر المسلمين بأن يدعوا دائما بقولهم : « اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم . غير المغضوب عليهم ولا الضالين » ولا شك أن فى مقدمة هؤلاء المنعم عليهم وعلى رأسهم الانبياء والمرسلون ، وجعل هذا الدعاء فى صلب الصلاة ، وكلما كان الانسان أتبع لسنة ، وأكثر تخلقا بأخلاقه وأشبهه به هديا ودلا وسما كان أقرب الى الله وأعلى منزلة عنده .

(١) رواه البخارى .

(٢) رسالة « ملة ابراهيم وحضارة الاسلام » للمؤلف بتغير يسير ص ١٣، ١٤، ١٥

(٣) الاحزاب ٢١ .

رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعمى منها الأذل ؟ أما والله لتعرفن العزة لك أو لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ والله لا يأويك ظله ولا تأويه أبدا الا باذن من الله ورسوله ، ولم يسمح له بالدخول حتى أرسل اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمره بأن يخلي سبيله (١) .

ولذلك كله استطاعوا ان يضعوا رؤوسهم ومهجمهم على اكفهم وراحاتهم ، وهانت عليهم الحياة ، وطابت لهم هجرة الأوطان وهجر الاخوان ، والشهادة في سبيل الله ، ولذلك استطاعوا ان يقولوا عند وقعة بدر ان امرنا تبع لأمرك ، فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك ، والله لئن استعرضت بنا هذا البحر خضناه معك (٢) .

نتيجة ضعف عاطفة الحب في العالم الإسلامي اليوم وتأثير ذلك في الحياة :

وما ضعف العالم الإسلامي في العمل بالشريعة اليوم والتكاسل في الطاعات والابتعاد عن كل ما يشق على النفس ، وما تهاون كثير من طبقة العلماء والمثقفين الثقافة الدينية الواسعة بالسمن وهدى الرسول الا لضعف هذا الاجلال الذي اهتم به القرآن كثيرا ، وضعف عاطفة الحب أو فقدانها ، العاطفة التي كانت ولا تزال مصدر قوة لا نظير لها ومرد عجائب ومعجزات في التاريخ ، وهو فراغ لايملا بأكثر مقدار من العقل والعزم والنظام ، وخسارة لا تعوض بشيء .

لا فلاح لأمة بعث فيها النبي الا في اتباعه وايتاره :

وفي الأخير فان مصير الأمم التي يبعث فيها هؤلاء الأنبياء مربوط باتباعهم والانتقياد لهم ، والاجتماع تحت رايتهم ، والتمسك بأهدابهم والسير في ركابهم بعز عزيز وذل ذليل ، فلا تفلح أمة مهما أوتيت

بصنيعته وايتار شريعته ورضاه على هوى النفس والعادات والأعراف ، وبذل الهجة والنفس والنفيس في سبيل دعوته ، لا يتأتى الا بهذا الاجلال المنبعث من أعماق القلب ، والحب العميق الذي يملك على الانسان مشاعره ، ويستولى على قلبه ولذلك قال « قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم وأخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ، ومسكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله ، فتركبوا حتى يأتي الله بأمره . والله لا يهدي القوم الفاسقين (١) » ولذلك كان الصحابة رضى الله عنهم من أحرص الناس على طاعته وأسرعهم اليها وانشطهم فيها ، وأصبرهم عليها ، ولهم في ذلك القدح المعلى والنصيب الأوفر الى يوم القيامة ، ومنهم أبو بكر الصديق الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أكرم عليه وأحب اليه من نفسه ، وحياته وصحته أعز عليه من حياته وصحته ، وقد ضربه عتبة بن ربيعة بنعيلين مخصوفين وبحرفنهما لوجهه ونزلا على بطنه حتى ما يعرف وجهه من أنفه ، وحملت بنو تميم أبا بكر في ثوب لا يشكون في موته ، ولما تكلم آخر النهار قال ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ولما قيل له انه سالم صالح قال ان لله على الا أذوق طعاما ولا أشرب شرابا أو أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) .

ومنهم المرأة الأنصارية التي كان الناس يخبرونها بشهادة أعز اقاربها . أبيها وأخيها وزوجها يوم أحد ، فقالت ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا خيرا ، هو بحمد الله كما تحبين ، فلما رآته قالت كل مصيبة بعدك جلل (٣) .

ومنهم عبد الله بن عبد الله بن أبي ، سمع أن والده قال : لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعمى منها الأذل ، فلما قدموا المدينة قام عبد الله على بابها بالسيف لأبيه ، ثم قال أنت القاتل لئن

(١) البراءة ٢٤ .

(٢) البداية والنهاية ج ٣ ص ٣٠ .

(٣) ابن اسحاق والبيهقي .

(١) تفسير الطبري ج ٢٨ .

(٢) قاله سعد بن معاذ - ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين .

من الحول والطول والذكاء والوسائل ، ومهما تقدم الزمان وتقدمت الحضارة وتنوعت الفلسفات وتغيرت الأحوال إلا باتباع هذا النبي والحب له والانتصار لدعوته ، رضيت بذلك أم أبت ، وكل أمة تحاول أن تنال العزة والسؤدد والكرامة والقوة الحقيقية عن غير هذا الطريق ، معتمدة على سياستها الحكيمية ، أو الانضمام الى معسكر من المعسكرات القوية ، فلن يكون ذلك وليس عاقبتها الا اللذل والهوان والاخفاق الذريع والانشقاق الداخلى والخيبة عاجلا او آجلا .

للحاضرة الرابعة

بين الإرادة الإلهية والأسباب المادية

وضع العالم الإسلامي والعربي اليوم وسببه :

تفاوت ما بين الأنبياء وخصومهم في الأسباب المادية :

والعالم الإسلامي بصفة عامة والعالم العربي بصفة خاصة خير شاهد على ذلك ، فقد كبر على البعض في الزمن الأخير اتباع الرسول النبي الأمي صلى الله عليه وسلم وثقل عليهما ايثار ما أمر به وطلبه ، واستنكفا عن الانتساب اليه والافتخار به والظهور في مظهر دينه أمام الأمم والحكومات ، وآمنا بضرورة التنصل عن دينه وأحكامه وحضارته ، وآمن أكثر أقطارهما بالفلسفات الحديثة . والى الآن لم يقضيا وطرا ولم يهزما عدوا ، وهذا هو العالم العربي ، ولا معذرة ولا استعناء ، موزع على نفسه ، ولم يحتل المكان اللائق به في زعامة العالم الإسلامي أو قيادة العالم الانساني ، وفي كل يوم مشكلة طريفة ، وقضية جديدة .

ان القارئ للقرآن - وهو الكتاب الوحيد الذى حفظ تاريخ الانبياء وحوادث حياتهم وأخبار دعوتهم - يلاحظ باستمرار ووضوح ، أن الأنبياء بعثوا دائما في بيئة مظلمة خانقة ، معارضة لدعوتهم ، نائرة عليها ، وبعثوا في ضعف شديد وفقر تام في الأسباب ، وكان كل ما يعتز به انسان من مال وملك وشيخ وانصار ، والأسباب المادية في جانب أعدائهم ، وفي كفتهم ، وتحت تصرفهم ، ولم يكن في جانب الأنبياء وكفتهم الا الايمان القوى الذى لا يرقى اليه شك ، والاخلاص الكامل الذى لا يشوبه طمع ونفاق ، واعتماد على الله وابتهال الى الله ، واطراح على عتبة عبوديته ، والعمل الصالح ، والتقوى ، وحسن السيرة ، والأخلاق الفاضلة ، وزيادة الى كل ذلك - زيادة لا يستهان بقيمتها - الدعوة اليمانية الصحيحة التى تكفل الله بنصرها فقال : « اننا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ، ويوم يقوم الأشهاد(1) » ، وقال « كتب

وصدق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه اذ قال لأصحابه العرب في الشام وهم كبار الصحابة وقادة الفتح الإسلامي وقد عيروه ببعض صنيعه الذى لا يتفق مع رئيس حكومة كبيرة :

« انكم كنتم اذل الناس ، فأعزكم الله بالاسلام فهما تطلبوا العزة بغيره يذلكم الله(1) » .

(1) البداية والنهاية ج ٧ ص ٦٠ .

(1) المؤمن ٥١ .

الله لأغلبنا أنا ورسلي ان الله قوى عزيز «(١) ، وقال : « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . انهم لهم المنصورون ، وان جندنا لهم الغالبون »(٢) .

شيء مقصود ومطرده مستمر :

ويبدو لقارئ القرآن أن ما حكاه الله تعالى من قصص الأنبياء والمرسل وأخبار دعوتهم ، وما لقيته من معارضات ومحاربات ومؤامرات ، وتآلب القوم عليها ، وتنهزم لها ورهبهم عن قوس واحد ، والحرب الشعواء التي كانت تقع دائما بين ضعيف فقير أعزل ، وبين جماعة غنية قوية قاهرة ، تمك جميع الأسباب ، أو ملك مستبد طاغية ، ثم النتيجة واحدة دائما ، وهو انتصار الدعوة النبوية وأصحابها على ضعفهم وفقرهم ، وهلاك الأغنياء الأثوياء والملوك الجبابرة رغم قوتهم وبطشهم ، أو خضوعهم لهذه الدعوة أو قبولهم لها ، ويبدو لقارئ القرآن أنه شيء مقصود ليس من المصادفات — وقدرة الله المحيطة الشاملة لا تعرف المصادفات ولا تعرف البخت والاتفاق ، وإنما هي منطق الضعفاء الجهلاء — وأنه شيء مطرد مستمر ، وأنه دعوة إلى الإيمان بالقدرة الكاملة التي خلقت لأسباب و تزال تملكها وتصرفها كيف تشاء ، وتشغلها متى تشاء ، وتعطلها متى تشاء ، وأنها — كما قلنا في المحاضرة السابقة — لم تعطل ولم تضعف بعد أن خلقتها ، ولم تتخل عنها بعد أن ملكتها من أرادت ، وأنها ليست في الخلق والابداع والنصر والغلبة في حاجة إلى الأسباب ، أنه دعوة إلى الإيمان بقوة الحق وصلاحيته للبقاء ، وبضعف الباطل وسخافته وتغيؤه للانكسار والانحدار « قل جاء الحق وما يبدى الباطل وما يعيد »(٣) . « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون »(٤) « فأما الزبد فيذهب جفاء ،

وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال »(١) .

تشجيع على التجربة واطمئاع في رحمة الله :

وهذا النمط من القصص القرآنية دعوة إلى التوكل على الله تعالى ونصره ، وان اختلف الزمان والمكان ، والاعتماد على الدعوة وحسن السيرة والعمل الصالح . وان اكفهر الجو وقسا الزمان ، وان معجزات النصر وعجائب القدرة الالهية تتكرر ، فاذا ذكر القرآن ما أكرم الله به المرسل من النصر والفتح المبين ، وقبول الدعاء والغلبة على الأعداء ذكر ما يشجع أتباعهم والحاملين لدعوتهم على هذه التجربة ، ويطمئعهم في رحمة الله ، يقول بعد ما ذكر ما أكرم الله به نبيه أيوب « رحمة من عندنا وذكرى للعابدين »(٢) ، ويقول عن يونس : « فاستجبنا له ونجيناه من الغم ، وكذلك نجى المؤمنين »(٣) ، ويقول : « سلام على موسى وهارون . انا كذلك نجى المحسنين »(٤) ، ويقول : « سلام على آل ياسين . انا كذلك نجى المحسنين »(٥) ، ويقول بعد ما يذكر قصة لوط : « نعمة من عندنا . كذلك نجى من شكر »(٦) ولذلك لم تكن هذه القصص التي تكون جزءا كبيرا من القرآن قصص فكاهة وتسلية أو مادة معلومات تاريخية ، إنما هي موعظة وذكرى وحث ودعوة وأرشاد وتوجيه وتقوية وتشجيع « لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ، ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون »(٧) ،

- (١) الرعد ١٧ .
- (٢) الانبياء ٨٤ .
- (٣) الانبياء ٨٨ .
- (٤) ص ١٢٠ ، ١٢١ .
- (٥) ص ١٣٠ ، ١٣١ .
- (٦) القمر ٣٥ .
- (٧) يوسف ١١١ .

- (١) المجادلة ٢١ .
- (٢) الصفت ١٧١ — ١٧٣ .
- (٣) سورة سبأ ٤٩ .
- (٤) الانبياء ١٨ .

« وكلا نقص عليك من انباء الرسل ما نثبت به فؤادك ، وجاءك في هذا الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين » (١) .

سنة الله مع جميع انبيائه :

لقد كانت هذه سنة الله مع جميع انبيائه ، فنوح يقول له قومه : « أنؤمن لك واتبعك الأرذلون » (٢) ويقول مبتهلا الى الله مستغنيا على ضعفه : « انى مغلوب فانتصر » (٣) ولوط يقول لقومه : « لو أن لى بكم قوة أو آوى الى ركن شديد » (٤) .

وشعيب يقول له قومه « ما نفقه كثيرا مما تقول وانا لنراك فينا ضعيفا . ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز » (٥) وفرعون يقول عن نفسه وعن موسى فى صراحة ووقاحة « ونادى فرعون فى قومه قال يا قوم ائيس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون . أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين . فلولا لقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين » (٦) .

أما امهم التى بعثوا اليها فقد كانت ذات الطول والحول وذات العدة والعتاد ، وذات الزروع والضرع ، وقد مر قول هود عليه السلام لقومه « واتقوا الذى أمركم بما تعلمون . أمركم بأنعام وينين . وجنات وعيون » (٧) وقول صالح لقومه : « أتتركون فى ما ها هنا آمنين . فى جنات وعيون . وزروع ونخل طلعها هضيم .

وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين » (١) وقول شعيب لقومه : « انى أراكم بخير » (٢) ولكن ماذا كانت النتيجة ؟ اقرؤوها مجموعة فى قوله تعالى « ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم ، وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأتهار تجرى من تحتهم ، فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين » (٣) .

اعظم تحد للمادية المرفة وأكبر ثورة على عبادة الأسباب :

أما قصة ابراهيم المعادة المكررة فى القرآن فهى أعظم تحد لتأثير الأسباب واستقلالها ، وأعظم شاهد للاستخفاف بقوتها وأصحابها ، وأعظم دليل على ضعفها وعدم غنائها عن أربابها ، وكأن ابراهيم عليه الصلاة والسلام كان مأمورا بالاستخفاف بهذه الأسباب وأربابها المدلين بها ، المقدسين لها ، العاكفين على عبادتها والاعتماد عليها ، وكأنه ، وهو رسول التوحيد وأمام الموحدين فى عصره ، كانت لذته وشفاء نفسه وغذاء روحه وقررة عينه فى الاستهزاء بهذه الأسباب ، وعدم الاحتفال بها ، والتغلب عليها بنصر الله ، وإبطال خواصها وطبائعها المودعة فيها ، وكأنه كان يلتزم فى كل خطوة من خطوات رحلته الإيمانية التوحيدية الطويلة الموفقة ، أن يدوسها بقدمه ويسخر منها بعزمه ويسجل انتصارا جديدا للإيمان على الشك ، والروح على المادة ، والتوحيد على نظام الشرك ، وقد عاش طول حياته نائرا على ما حوله من القوة والسلطان وعبادة المادة والمعدة ، والآلهة الزائفة والقوى الخفية .

والسر فى ذلك « أن العالم فى عصر ابراهيم عليه السلام كان خاضعا للأسباب خضوعا شديدا ، واعتمد الناس عليها اعتمادا

(١) هود ١٢٠ .

(٢) الشعراء ١١١ .

(٣) القمر ١٠ .

(٤) هود ٨٠ .

(٥) هود ٩١ .

(٦) الزخرف ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ .

(٧) الشعراء ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ .

(١) الشعراء ١٤٦ - ١٤٧ .

(٢) هود ٨٤ .

(٣) الانعام ٦ .

بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون» (١) .

واجاب الله دعاءه فضمن لهم بالرزق والامن وجعل بلدهم محطا للخيرات والثمرات « أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى اليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون » (٢) « فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف» (٣) ، تركهم في أرض لا أثر فيها لما يروى الغلة ويبل الحلقوم ، فاذا بماء يفور من الرمال ويفيض من غير انقطاع يشربه الناس في سخاء ويحملونه الى بلادهم ، ويترك أهله في بلد قفر لا أنيس فيه ، فاذا به يصبح مكانا يؤمه الناس من كل صوب ويأتون اليه من كل فج عميق .

وهكذا كانت حياة ابراهيم تحديا للمادية المسرفة الشائعة في عصره وعبادة الأسباب ، واتخاذها أربابا من دون الله ، ومثالا للايمان بالله وقدرته المطلقة ، وان ارادته فوق كل شيء ، وهكذا كانت سنة الله معه يخضع له الأسباب ويخلق له ما تحار فيه الالباب» (٤) .

تحدى قصة موسى للعقل المادى الضيق :

وتلى قصة ابراهيم قصة موسى في تحديها الصارخ للعقل المادى الذى ينظر الى الأسباب والحوادث كتقوانين أبدية جامدة طبيعية لا سلطان عليها لأحد ، وقوى قاهرة تحكم ولا يحكم عليها ، وجاءت محنة وبلاء للذين ضاق تفكيرهم وكلت أبصارهم عن أن

(١) ابراهيم ٣٧ .

(٢) القصص ٥٧ .

(٣) سورة قريش ٣ ، ٤ .

(٤) للمؤلف في مجلة « المسلمون » ص ١٨٠ ، ١٨١ المعدادان ٧ ، ٨

سنة ١٣٨١ هـ .

زائدا ، حتى أصبحوا يعتقدون أنها مؤثرة مسنقة قائمة بذاتها ، وحتى أصبحت أربابا من دون الله ، وأصبح هذا الخضوع للأسباب وتقديسها والاعتماد عليها وثنية أخرى غير الوثنية التى أفرقوا فيها ، وغلوا في عبادة الأصنام والأوثان ، وكانت حياة ابراهيم ثورة على الوثنيين ، ودعوة الى التوحيد النقى الخالص ، وتحقيقا لقدرة الله الواسعة الحيطه بكل شيء ، وأنه يخلق الأشياء من عدم وأنه يخلق الأسباب ويملكها ويفصل الأسباب عن المسببات ، وينزع عن الأشياء خواصها وطبيعتها ويستخرج منها أضرارها ، ويسخرها لما يشاء ومتى يشاء .

أشعل الناس له النيران وقالوا « حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين» (١) « وكان ابراهيم يؤمن بأن النار خاضعة لارادة الله تعالى ، ليس الاحراق لها طبيعة دائمة لا تنفك عنها ، انما هى طبيعة مودعة امانة فيها ، اذا أراد اطلاق لها العنان ، واذا أراد أمسك الزمام ، وحولها الى برد وسلام ، فخاض فيها مؤمنا مطمئنا واثقا ، وهكذا كان « قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على ابراهيم . وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخرين» (٢) .

واعتقد الناس أنه لا حياة الا بالخصب والميرة والماء الغزير ، فكانوا يرتادون لأسرهم وأبنائهم ، ويختارون لسكنهم ووطنهم اراضى مخصبة تكثر فيها المياه ويتوفر فيها الخصب ، وتسهل التجارة والصناعات ، وقد ثار ابراهيم على هذه العادة المتبعة والعرف الشائع والاعتماد على الأسباب فاختر لأسرته الصغيرة ، المكونة من أم وابن ، وأديا غير ذى زرع ، لا زراعة فيه ولا تجارة ، منقطعاً عن العالم ومراكزه التجارية ومواضع الرخاء والثراء ، ودعا الله تعالى أن يوسع لهم الرزق ، ويعطف اليهم القلب ، ويجنى اليهم الثمرات ، من غير سبب وطريق معروف فقال : « ربنا ائى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند

(١) الانبياء ٦٨ .

(٢) الانبياء ٦٩ ، ٧٠ .

نظر الى ما هو وراء الأسباب والى من هو فوق الأسباب ،
وهنا أستعير ما كتبت في مقالة لى سابقة أستعرض قصة موسى
في القرآن وما فيها من عبرة وذكرى .

« يولد موسى في مصر في بيئة قاتمة خانقة ، قد انطبقت على
بنى اسرائيل كل الانطباق ، وسدت في وجوههم المنافذ والأبواب ،
حاضر شقى ومستقبل مظلم ، قلة عدد ، وفقر وسائل ، وذلة
نفوس ، عدو قاهر ، وسخرة ظالمة ، لا قوة تدافع ولا دولة تحمى ،
أمة مصيرها معلوم محتوم قد خلقت للشقاء والنفاء .

ويولد موسى ، وولادته وحياته كلها تحد لفلسفة الأسباب
ومنطق الأشياء ، أراد فرعون أن لا يولد فولد ، وأراد أن لا يعيش
فعايش ، يعيش في صندوق خشبي مسدود ، وفي ماء النيل الفاتس ،
وينشأ في حضانة العدو ورعاية القاتل ، ويجد به الطلب القوى
الضيافة الكريمة ، والزواج الحبيب ، ويرجع بأهله فيلنفه الليل
المظلم ، والطريق الموحش ، وتمخض زوجه فيطلب لها نارا
تصطفى بها فيجد نورا يسعد به بنو اسرائيل ويهتدى به العالم ،
يطلب النجدة والمدد لامرأة واحدة ، فيجد النجدة والمدد للانسانية
كلها ، ويكرم بالنبوة والرسالة .

ويدخل على فرعون في أبهته وسلطانه ، وفي ملئه وأعوانه وهو
المطلوب بالأمس قد تحققت عليه الجناية ، توجهت اليه الدعوى ،
وفي لسانه حبسة ، وفي موقفه ضعف ، فيقهر فرعون وملاه بدعوته
وإيمانه ، وحجته وبيانه ، ويلجأ فرعون الى سحرة مصر ليقتهر
بفنه معجزة موسى التي ظنها فنا وسحرا ، فاذا بالسحرة
خاضعون خاشعون ، يقولون : « آمنا برب العالمين . رب موسى
وهارون (١) » .

ويؤمر بالخروج ببني اسرائيل والاسراء في الليل من أرض المظلم
الى أرض النجاة ، وتبعه فرعون بجنوده ، ويصبح موسى ،

والبحر أمامه ، والعدو من ورائه ، ويخوض البحر فينفلق ويكون
كل فرق كالطود العظيم ، ويعبر موسى وقومه ويتبعهم فرعون
بجنوده فيلتهمهم البحر الهائج .

وهكذا يهلك فرعون وقومه الأتقياء الأغنياء ، ويملك بنو
اسرائيل الضعفاء الفقراء « وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون
مشارك الأرض ومغاربها التي باركنا فيها ، وتبت كلمة ربك
الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا ، ودمرنا ما كان يصنع
فرعون وقومه وما كانوا يعرثون (١) » .

مخالفة قصة يوسف للمألوف المعروف :

ولا تقل قصة يوسف في الضرابة ومخالفتها للمألوف المعروف
من جريان الحوادث على السنن الطبيعي ، خاضعة لقانون العلة
والمعلول والسبب والمسبب . فقد اجتمع له من حسد الإخوة وكيدهم
له والبقاء في غيابة الجب مدة في الزمان ، والتقاط السيارة له
والرق ، ما هو كفيلا بالتعرض للمهلك والأذى والهوان . ولكنه
يخرج من كل هذا سليما معافى ، ويعيش ، ويجتمع له من الوقوع
في امتحان شديد ، في العفة والنزاهة والوفاء والشرف ، ويعتصم
مع توفر الدواعى القوية والمغريات القاهرة والأغراء ، من شباب
وجمال وطلاب والحاح شديد من جانب ، له الفضل وله السلطان
وله الاستهواء ، والتصاق التهمة الشنيعة به ، والدخول في
السجن في تهمة خلقية ، وفي عصر لم يكن السجن فيه الا رمزا
للجريمة ، ولم يكن الا مكان الأشقياء ومن سوء القالة والأحداث
في البلد ، وقد كان زيادة على كل ذلك غريبا عن مصر لا يتصل
بها. بجنسية ووطنية ، وكان فردا من شعب ينظر اليه المصريون
باحترام واستخفاف كبير ، وكان الاسرائيلي آخر من يفكر فيه
لشرف أو حكومة في مصر ، كل ذلك كفيلا باخمال ذكره واضعاف
شأنه واساءة شهرته وحرمانه من كل ثقة وتكريم ، وبعده عن

(١) الاعراف ٢٣٧ منقولة من رسالة « ثورة في التفكير » للمؤلف .

(١) الشعراء ٤٧ ، ٤٨ .

كل مركز محترم ومكان مرموق في المجتمع المصري ، فضلا عن امارة وسيادة ، فضلا عن تقليد منصب جليل ، لا يحظى به الا السيد الكريم ، الحفيظ العليم ، فضلا عن أن يكون سيد مصر المطاع يأمر وينهى ويرجى ويخشى ، ولكن عكس ذلك يقع بين سمع الناس وبصرهم ويستترع يوسف على اريكة مصر ، ويتقلد مفاتيحها وزمام الأمور فيها « . وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوا منها حيث يشاء ، نصيب برحمتنا من نشاء ، ولانضيق أجر الحسنين (١) » .

مماثلة بين قصة يوسف ومحمد صلى الله عليه وسلم :

ان آخر الرسل صلى الله عليه وسلم ومن آمن به ووضع يده في يده من أفراد قريش كانوا يواجهون مثل هذه الأجواء القاتمة ، ومثل هذه المشكلات ، قلة عدد ، وضعف شأن ، وفقد أسباب ، وخذلان من العشيبة ، ومحاربة شديدة من القوم ، ومقاطعة وتطويق ، واحصار وتضييق وصد عن سبيل الله ، وتعذيب شديد للمهتدين الذين كانوا يسمونهم « الصابئين » و« السفهاء » ، وتأمراً على قتل الرسول ، ذعر دائم وخوف قائم ، ولا بيان أبلغ من بيان القرآن ، ولا تصوير أدق وأصدق من تصويره ، « واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض ، تخافون أن يتخطفكم الناس » (٢) .

تبشير لرسول الله بالنصر الكريم والمستقبل العظيم :

في هذه الأجواء القاتمة التي لا تثير أملاً ولا تبشر بمستقبل ، ولا يرى فيها وميض من النور ، قص الله على رسوله قصة يوسف ، وسيرته صلى الله عليه وسلم من أشبه السير به ، وقصته مع قبيلته قريش كقصة يوسف مع أخوته ، حسد ومحاربة في البداية ، واعتراف واجلال وندم في النهاية ، وابعاد واقصاء ، ونكران وجفاء

في الأول ، وخضوع والتجاء واستعطاف واستجداء في الآخر ، وغيابة الحب في محنة يوسف ، وغار ثور في رحلة محمد صلى الله عليه وسلم ، وسجن في قصة ابن يعقوب وشعب أبي طالب في قصة ابن عبد المطلب ، وتقرير واعلان من أعداء كل واحد منهما « تالله لقد آثرك الله علينا وان كنا لخاطئين » (١) والجواب الرفيق الكريم من كلا السيدين الرفيقتين الكريمين : « لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » (٢) وقد بدأ القرآن هذه القصة العظيمة بقوله : « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ، وان كنت من قبله لمن الغافلين » (٣) وختمها بقوله « لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ، ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » (٤) .

وهكذا نزلت هذه السورة في جو مكة الثقيل المظلم ليبشر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمستقبله العظيم المشرق الزاهر ، فكان قصة يوسف قصته ، ولم تنزل الكناية — في الجو المعادي الرهيب — أبلغ من التصريح دائماً .

انتصار مقرون بانتصار الأمة :

ثم قص الله عليه صلى الله عليه وسلم قصة موسى مع فرعون وملئه ، القصة التي قصها في سورة القصص ، وهي قصة فوز موسى وسلامته من فرعون وكبده وتشرفه بالرسالة العظمى والنبوة الكريمة ، وهو لا يطمع الا في نار يصطلى بها وتتدفأ بها زوجته ، وهلاك العدو ونجاة بنى اسرائيل وفوزهم وسيادتهم ، وقد افتتح هذه القصة بمقدمة مجلجلة عظيمة ، كانت جديرة بأن تخلع قلوب

- (١) يوسف ٩١ .
- (٢) يوسف ٩٢ .
- (٣) يوسف ٩٣ .
- (٤) يوسف ١١١ .

- (١) يوسف ٥٦ .
- (٢) الانفال ٢٦ .

الأعداء من قريش وتملأها هيبة واشفاقا من مستقبل هذه الجماعة المؤمنة الصغيرة الضعيفة ، التي كانت قريش لا تحسب لها حسابا ، وكانت تريد أن تلتهمها التهاما فقال « طسم ، تلك آيات الكتاب المبين . نزل عليك من نبي موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . ان فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا ، يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم ، انه كان من المفسدين . ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم في الأرض ، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » (١) .

مصدر القوة والثقة والأمل ، للدعاة والعاملين والمؤمنين الصالحين :

ولم تكن هذه القصص البليغة القوية تساية وتقوية قلب الرسول صلى الله عليه وسلم فحسب ، كما قال : « وكلا نقص عليك من انباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق ، وموعظة وذكرى للمؤمنين » (٢) بل كانت ولا تزال هذه القصص الصادقة مصدر القوة ورباطة الجأش والأمل المشرق الموطيد ، والثقة القوية بالنجاح والفوز والفلاح والانتصار على المعارضين ، للدعاة والعاملين الذين يعملون على نهج النبوة وعلى طريق الأنبياء ، ويقومون بالدعوة الى الايمان والعمل الصالح وتقوى الله ، ويصبرون على الأذى ويتأبرون على الجهاد ، ويرابطون في سبيل الله ، وقد قال الله تعالى في قصة موسى « وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا ، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون » (٣) وقال يوسف مجيبا معللا لما أكرمه الله به من النجاح الخارق للعادة : « قال أنا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا ، انه من يتق ويصبر ، فان الله لا يضيع أجر المحسنين » (٤) وليعلموا

- (١) القصص ١ - ٦ .
 (٢) هود ٢٠ .
 (٣) الاعراف ١٢٧ .
 (٤) يوسف ٩٠ .

ان هذه سنة الله التي لا تتخلف ، وأن الدعوة والفتح على منهاج الأنبياء والايمان والعمل الصالح والطاعة ، والصبر والسيره الحسنة الفاضلة شجرة تؤتي أكلها كل حين باذن ربها ، وأن الفرد الضعيف مع هذه الصفات قوى ، وأن العدد القليل مع هذه الأخلاق كثير « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين » (١) « ولا تهنوا ولا تحزنوا ، وانتم الأعلون ان كنتم مؤمنين » (٢) .

ولم تكن هذه القصص مصدر القوة والعبارة للأجيال بعد الأجيال الا بهذا الأسلوب الايماني القوى ، والا اذا كانت دليلا على أن دعوة الأنبياء هي التي يكتب لها الانتصار والازدهار ، وأن الصفات والسيره والأخلاق التي يرضاها الله هي التي يقدر لها الفوز والفلاح ، مهما عارضتها الأسباب وتآلفت ضدها القوى وتداعى عليها الأعداء ، ومهما ضعف أصحاب هذه الدعوة النبوية والسيره المرضية ماديا « لقد كان لكم آية في فئتين التقتا ، فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة ، يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء ان في ذلك لعبرة لأولى الأبصار » (٣) .

اما الايمان بدعوة الأنبياء واما الهلاك والدمار :

ان سيرة الأنبياء التي حكاها الله تعالى في كتابه في اجمال تارة وفي تفصيل أخرى ، وذكرها مرارا وتكرارا ، تجمع بينها نقطة لا تختلف . وهي انتصار دعوتهم على جميع المعارضات وفوزهم على أعدائهم ، اما بايمان هؤلاء الأعداء وقبولهم للدعوة واخلاصهم لها وتفانيهم في سبيلها ، واما بهلاكهم ودمارهم « فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين » (٤) .

- (١) البقرة ١٤٩ .
 (٢) آل عمران ١٣٩ .
 (٣) آل عمران ١٣ .
 (٤) الانعام ٤٥ .

الحربية فنرى كفتنا راجحة في اقليم ، طائشة في آخر ، راجحة في حين ، طائشة في حين آخر .

ومنذ مدة طويلة آمنا بسيادة الغرب وقيادته ، وأنه أمر مقرر وواقع ليس منه مفر ، وآمنا بأنه وضع لا يقبل التحول والتطور وتحدد المثل القديم وأصبح عقيدة شائعة « إذا قيل لك أن التتر انهزموا فلا تصدق » .

وأصبحنا لا نفكر في معارضة الغرب ومناقشة سيادته وجدارته للسيادة ، وإذا فكرنا في ذلك على حين غفلة من العلوم والدراسة والعقل والكياسة — استعرضنا طاقاتنا ووسائلنا والقوة الحربية في بلادنا ، وسهمننا من المخترعات الحربية والطاقتات الذرية ، فاستولى علينا اليأس والتشاؤم ، وآمنا بأننا لم نخلق الا للخضوع والخنوع ، والعيش على هامش الحياة وعيالا على الغرب ، مرتبطين معقودي النواصي بأحد المعسكرين المتنافسين (١) .

سلاح المؤمن ومفتاح النجاح والايمان والطاعة :

ولكن ما قص الله علينا من سيرة الانبياء ومصير اعدائهم في القرآن ، وقد عرضنا بعض أمثلتها الرائعة في هذه المحاضرة ، تعارض هذا التفكير على الخط المستقيم ، وتبين لنا بوضوح أن سر انتصارهم والسلاح الذي واجهوا به اعداءهم وانتصرت به جماعتهم الصغيرة المستضعفة . وتواتت الامامة والزعامة في العالم هو « الايمان » و « الطاعة » و « الدعوة الى الله » « وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا ، وكانوا بآياتنا يوقنون » (٢) و « أوحينا الى موسى وأخيه أن تبوا لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة ، وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين » (٣) « يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا

(١) ثورة في التفكير ص ٢ ، ٣ .

(٢) ألم السجدة ٢٤ .

(٣) يونس ٨٧ .

وهذه منزلة هذه الدعوة عند الله التي تتوقف عليها سعادة الانسانية ونجاتها ، يخرق الله لها أحيانا نواميس الفطرة وكثيرا من القوانين الطبيعية ويحدث ما لا يخطر على بال ، أما المصالح الفردية أو القومية أو حب العلو والسيادة والطموح والكبرياء ، والزعامات الزائفة التي لا تبني خيرا ولا تهدم شرا وليس للإسلام والانسانية فيها مصلحة ، وليس لها مع قوى الشر ومع الفساد والكفر والفسوق نزاع ، انما تسعى وتناضل لأن يكون كل هذا الفساد وكل هذه المعاصي تحت سيطرتها واشرافها ، وفي ولايتها وحضانتها ، وأن يعود نفعها انيها ، فلا قيمة لها عند الله ولا تعدل عنده جناح بعوضة ، ولا يبالي الله في أى واد هلكت وأى عدو تسلط عليها ومتى يفاجئها الموت أو ثورة عارمة جسارة لا ترحم ولا ترثى ، وازمات ومشكلات لا أول لها ولا آخر .

التفكير الخاطيء السائد :

ان التفكير السائد مع الأسف اليوم في الشعوب الاسلامية ، وفي انحاء العالم الاسلامي ، والمنطق المقبول الذي خضعت له جميع الطبقات وآمنت به ايماننا راسخا ، هو أن الميزان الفاصل هو القوة المادية مع كل سيرة وخلق ، ومع كل عقيدة ومنهج للحياة ، وأصبح من عقيدة العاملين وحتى دعاة الدين وهتافهم « المادة قبل كل شيء » وهذا المبدأ هو الذي تنقضه وتبطله سيرة الانبياء المرسلين ، وما جرى لهم من الحوادث وماظهر على أيديهم من العجائب والمجزات ، وما أكرمهم الله به من النصر والفتح المبين ، وما فعل بأعدائهم .

وهنا نستعير مرة ثانية ما نقلته في رسائتي « ثورة في التفكير »

« منذ مدة طويلة بداننا نزن أنفسنا وقيمتنا ومكانتنا في خارطة العالم بهذه « الطاقتات » و « الامكانيات » وبما نملكه من الوسائل ، والمواد الخام وحاصلات البلاد ومنتجاتها ، وعدد النفوس والقوة

الله ينصركم ويثبت أقدامكم» (١) « فلا تهنوا وتدعوا الى السلم ،
وانتم الاعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم» (٢) .

لا مستقبل للأمة الإسلامية الا في طريق الأنبياء :

هذه رسالة هذه القصص الحكيمة البليغة الصادقة ، وهذا هو
الدرس الحكيم الذي تلقيه علينا حياة الأنبياء وسيرتهم الفاضلة ،
وهذا هو المنهج الرشيد الذي سار عليه الأنبياء من غير استثناء
وسجله عليهم القرآن ، ولا أمل للأمة الضعيفة الا في هذا المنهج ،
ولا مستقبل للأمة التي تؤمن بالمبادئ وتحضن الدعوات الا في
هذا الطريق ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

المحاضرة الخامسة

عظمة البعثة المحمدية

نكبة العصر الجاهلي :

لم تكن نكبة الجاهلية — هذا العصر الذي أطبق المؤرخون على
انحطاطه وسواده — أنتشار الكفر والفجور ، والمعاصي والآثام ،
والظلم والظغيان ، واهدار كرامة الانسان والاعتداء على حقوقه ،
وتغلب الحكومات الجائرة والملوك الجبابرة ، ولم تكن نكبتها قلة
عدد الصالحين العابدين لله وضعفهم ، وكل ذلك ما يؤسف له ،
ولكنه وقع مرارا في تاريخ الانسانية الطويل ، وعالجته رجال
الاصلاح والدعوة وأهل الضمائر الحية والعزائم القوية في عصورهم .

ولكن نكبة الجاهلية التي جاءت لازلتها والتغلب عليها البعثة
المحمدية التي اختارها الله لمعالجة أعظم نكبة ونكسة للانسانية ، هي
فقدان العلم الصحيح من العالم والارادة الخيرة ، وفقدان الجماعة
التي تنتصر للحق وتحارب الباطل ، وتصارع الشر وتبنى عالما
جديدا .

فقدان العلم الصحيح :

لقد فقد العلم الصحيح الذي يعرف به الانسان ربه معرفة صحيحة
ويصل به الى خالقه ، ويعبد به عبادة خالصة مرضية ، حتى اذا

(١) سورة محمد ٧ .
(٢) محمد ٣٥ .

وجدت الإرادة الصحيحة القوية والطب الصادق لم ينتفع به صاحبه ، وكل علم وجد في هذا العصر مشوب بالجهل ممزوج بالخرافة ، محرف عن الأصل ، خطؤه أكثر من صوابه ، وضرره أكبر من نفعه .

فقدان الإرادة الخيرة القوية :

وإذا وجد هذا العلم الصحيح على ندرته في صدر من صدور العلماء ، أو في كتاب من كتب الحكماء ، أو كثارة من علم نزل قديما من السماء . لم تجد الإرادة الخيرة القوية التي تلتقطه من مكانه ، وتعص عليه بالنواجذ وتتغلب به على شهوات نفسه ومعارضة بيئته ، فقد فقدت عاطفة الطلب لله والبحث عن الحق ، وكلت العزائم والقوى في هذا الطلب ، وانصرفت الى طلب المعاش وأرضاء الشهوات وتحقيق مطاب النفس ، وطاعة السلاطين العمياء ، والاستماتة في سبيلهم ، وانطفأت جذوة الحب وبردت مجامر القلوب . واستحوذ عليها حب الدنيا ، وما بقى من مظاهر الدين فاما وثنية خرافية ، واما تقاليد سطحية .

فقدان الجماعة التي تنتصر للحق :

« وإذا وجد العلم الصحيح والإرادة الخيرة لم توجد الجماعة التي يلتجئ إليها في الشدة ، ويستمدان منها القوة عند الضعف ، فضاعا في جهود فردية وإصلاحات شخصية ، وكان هؤلاء الأفراد — المتجؤون إلى الكنائس والأديار أو المغارات وقمم الجبال — مصاييح احترقت ذبالتها ، ونفذ زيتها ، وخفت نورها ، أو كبراعات تطير في ليلة شائبة مطيرة مظلمة ، لا يهتدى بها المسافر التائه ، ولا يتدفأ بها الفقير المقرور .

الحاجة إلى طلوع شمس جديدة :

أما العلم الصحيح الذي يهدى الناس إلى فاطر هذا الكون وصفاته اللاتئة به وأسمائه الحسنى ، ويصلهم به صلة جديدة

قوية ، ويملا العقول يقينا جديدا ، والقلوب حبا شديدا ، وينفى تحريف الغالين ، وانتحال البطلين ، ويخرج الناس من الظلمات إلى النور ومن الشك إلى اليقين ، فلم يكن إلا علما محفوظا غضا طريا منزلا من السماء حديث عهد بربه ، وكانت النبوة الجديدة وحدها هي التي تستطيع — باذن الله — أن تغير هذا الوضع الفاسد المحيط بالإنسانية كلها ، ويردع أهل الشرك والوثنية من خرافتهم ، وأهل الكتب من اليهود والنصارى والمجوس من تحريفهم وجهالتهم ، ويعترفون هم جميعا — إذا أنصفوا وخافوا الله — بأن النجوم قد أفلتت ، وأن شمسا جديدة قد طمعت ، وأن الصباح قد أغنى عن الصباح ، « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة ، رسول من الله يتلو صحفا مطهرة فيها كتب قيمة (١) » .

تعاون الفلسفة والوثنية على أضعاف الإيمان واضلال الإنسان :

وكانت الإرادة الخيرة القوية خاضعة دائما للعلم الصحيح والإيمان القوى ، فاذا آمن الإنسان بحقائق وآمن بمضار ومنافع وخاف ورجا ، ورغب ورهب تعبت ذلك إرادته وطاوعته أعضاؤه واستجابت له قواه ، ولكن فقدت الإيمان القوى في العصر الجاهلي وشك الإنسان في وجود الله وفي وجود الآخرة وفي وجود الجنة والنار ، وفي نتائج أعماله وتصرفاته ، وتعاونت الفلسفة والشرك على أضعاف هذا الإيمان وأضعاف رابطة العبد وربيه ، أما الأولى قبالالاح الشديد على نفى الصفات ، وأما الثانية فيصرف هذه الصفات إلى المخلوقات ، فمن آمن بالأولى لم ير حاجة للالتجاء والخوف والطمع من هذا الخالق الذي تجرد عن كل صفة وعن كل قدرة ، وعن الرحمة والمحبة ، ومن آمن بالثانية تشاغل بالمخلوقات والالتجاء إليها وإم ير الحاجة أو لم يجد فراغا للالتجاء إلى رب لا يرى بالأبصار ، قد تنازل لكثير من خلقه في أمور العباد .

وهكذا توزع العالم في معسكرين معسكر لا يجد في نفسه اندفاعا وداعية للالتجاء والدعاء والسعى للآخرة ، ومعسكر لا يجد

(١) سورة البينة ١ - ٣ .

« لا تحزن ان الله معنا(١) » وكان يرى من امد يعيد وفي ظلام شديد ، في يد سراقفة الفقير البدوي*سواري كسرى امبراطور فارس ، وكان يرى في جوع قدمس ، وحصار قد طال ، في شرارة صخرة الخندق التي كسرها القصر الأبيض لقيصر الامبراطور الثانى ، أنه لا يمكن تغيير هذا الوضع الجاهلى العالمى واعادة الحياة واليقين والحماسة الدينية اليه الا بهذا الايمان القوى النبوى ، والا بهذه الإرادة الالهية للانسان بالخير « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم ، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل نفى ضلال مبين(٢) » هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون(٣) » .

الحاجة الى أمة تبعث للإصلاح والكفاح الدائم :

وكان هذا الفساد أعظم وأوسع من أن يتداركه أفراد منتشرون ومصلحون موزعون ، أو عصاة قوية أو مؤسسة غنية ، فقد اتسع الخرق على الراقع ، وم الوادى على القرى ، انما كان ذلك عمل أمة تبعث وتتصل وتستمر وتكافح وتناضل وتنتشر فى أرض الله ، وتتحدى الباطل أينما كان ، وتجتث الشر أينما وجد ، وتملاً أرض الله قسطا وعدلا ، كما ملات ظلها وجورا ، وكان العالم فى حاجة الى بعثة نبى من أعظم الأنبياء مقرونة ببعثة أمة من أقوى الأمم ، وهكذا كان ، « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله (٢) » .

هذه كانت البعثة المحمدية — أيها الاخوان — جاءت فى أوانها وفى شدة حاجة الانسانية اليها « وترى الأرض هامدة فاذا أنزلنا عليها

- (١) سورة التوبة ٤٠ .
- (٢) الصفات ٩ .
- (٣) الصف ٩ .
- (٤) آل عمران ١١٠ .

فرصة للسؤال من رب الأرباب ، ووجد كلاهما مرتعا خصيبا فى العصر الجاهلى ، وهكذا ضاعت الانابة المودعة فى قلب الانسان ، وضاعت القوى الغنية المودعة فى أعضاء الانسان ، جحود وخود ، وفى وثنية وخرافة ، وفى عبادة النفس والسلطان ، والطاغوت والشيطان ، وعكف العالم الانسانى كله من الشرق الى الغرب على عبادة اصنام وآلهة قد تخيلها أو توارثها ، أو مقاصد وغايات ومثل عليا فى الحياة قد اخترعها وفرضها على نفسه ، وحق عليهم كلهم قول ابراهم قال « اتعبدون ما تحتون(١) » .

لا يغير الوضع الجاهلى الا الايمان النبوى القوى العالمى :

ولم يكن لغير نبى مؤيد من الله صاحب قوة قدسية وشخصية نبوية أن يعيد هذا الايمان الضائع ، المفقود من قرون متطاولة الى قلب الانسان ، ويشغله بطلب جديد وحب جديد ، ويصرف ارادته القوية من طلب الدنيا الحلوة الخضرة ، وتحقق مطالب النفس العزيزة اللذيذة ، وأرضاء السلاطين الأتويان الأغنياء ، الى طلب الله تعالى الذى لا تدركه الأبصار ، وافناء قواه فى مرضاته ، وبذل المهجة والنفس والنفيس فى سبيله ايمانا بوعوده وطمعا فى ثواب الآخرة ، انه يحتاج الى ارادة لا تثنيها الجبال ، ولا ترهنها معارضة الجن والانس ، « لو وضعت الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فى طلبه(٢) » ارادة اقصتها الرحمة الالهية بالانسان ، فلا بد أن تقوى وتتحمك ، ولا بد أن تتحقتق وتتم ، انه يحتاج الى ايمان لو وزع على العالم كله وعلى الانسانية كلها لوسعها ، وبدل شكه يقينا ، وضعفه قوة ، ايمان كان ينطق على لسان صاحبه فى ساعة تخرس فيها الألسن وتزيع فيها الأبصار ، وقد قام الأعداء الألداء على وجه الغار ، ويقول

(١) الصفات ٩٥ .

(٢) من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم . انظر البداية والنهاية لابن كثير

الماء اهترت وربت وأنبئت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى ، وأنه على كل شيء قدير (١) .

تأثير البعثة المحمدية :

« وإذا بهذه الجثة البشرية الهامدة - التي كانت تسمى النسل الإنساني - يدب فيها دبيب الحياة . وإذا بهذا الجسد الميت يهتز اهتزازا تتزلزل به أوكار انطويور التي قد عششت عليها ، وباضت وفرخت ، وهي تحسب أنها ميتة لا حراك بها ، وإذا بيوت العناكب تتفتت وتتساقط ، وذلك ما يعبر عنه أصحاب السير والروايات في لغتهم المحدودة بارتجاج أيوان كسرى وخمود نار الجوس ، أما رأيتم كيف تتناثر المباني المخصصة والبروج المشيدة كأوراق الخريف بحركة من باطن الأرض فيضطرب بها ظهير الأرض ، فكيف لا تتزلزل نظم كسرى وقيصر ، وما بناه فراعنة العصر ببعثة النبي الأعظم صلى الله عليه وسلم وطلوع فجر السعادة والعدل في العالم (٢) » .

مولد عام جديد :

لم يكن مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعثته مولد نبي فحسب ، أو مولد أمة فحسب ، أو مولد عصر فحسب ، إنما كان مولد عالم جديد بدأ من ولادته وبعثته ، وسيبقى إلى أن يرث الله هذه الأرض ومن عليها ، وقد تسربت آثار بعثته إلى هذا العالم وتغلغلت في أحشائه ، وخضع لها هذا العالم في عقيدته وفي أسلوب تفكيره ، وفي مدنيته ، وفي أخلاقه واجتماعه ، وفي علمه وثقافته ، حتى لا يمكن تجريده عنها ، ولو جرد منها لحرم أغنى ثروة يملكها وأعظم قوة يعتز بها ، ولنكص على أعقابها ، ورجع إلى

(١) الحج ٥ ، ٦ .

(٢) معقل الإنسانية للمؤلف ص ٢ ، ٣ .

الوراء ، وهو يدين له في حياته لأن بعثته صلى الله عليه وسلم هي التي منحته حق الحياة ومدت في أجله ، وغلبت قوى الخير عن قوى الشر ، وأنقذته من سخط الله الذي أحاطه ولعنة الله التي حقت عليه ، والشؤم الذي أظله ، وكان جديرا - قبل بعثته - بأن يطوى بساطه وينقض أساسه « ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا ، لعلهم يرجعون (١) » (ان الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب (٢)) .

تصوير للعصر الجاهلي :

وماذا رأى في الأرض - وهو العليم الخبير - لم ير إلا ساجدا لوثن أو عابدا لبطن وخاضعا لسلطان أو مطيعا لشيطان ، أما الدين الخالص ، أما الطلب الصادق ، أما العلم الصحيح والعمل الصالح ، أما الإخبارات إلى الله ، والسعى للأخرة فأندر من الكبريت الأحمر وأغرب من العنقاء المغرب ، وصدق شيخ الإسلام أحمد ابن عبد الرحيم الدهلوي إذ قال ، ولم أر تصويرا أدق للجاهلية منه :

« اعلم أن العجم والروم لما توارثوا الخلافة قرونا كثيرة ، وخاضوا في لذة الدنيا ونسوا الدار الآخرة واستحوذ عليهم الشيطان وتعمقوا في فراقق المعيشة وتباهوا بها ، وورد عليهم حكماء الأفاق يستنبطون لهم دقائق المعيشة ومراققها ، فما زالوا يعملون بها ويزيد بعضهم على بعض ويتباهون بها ، حتى قيل أنهم كانوا يعيرون من كان يلبس من صنائدهم منطقة أو تاجا قيمتها دون مائة ألف درهم أو لا يكون له قصر شامخ وآبزن (٣) وحمام وبساتين ، ولا يكون لهم دواب فارهة وقلمان حسان ولا يكون

(١) سورة الروم ٤١ .

(٢) حديث شريف .

(٣) فسقية .

له توسع في المطاعم وتجميل في الملابس ، وذكر ذلك يطول ، وما تراه من ملوك بلادك يفندك عن حكاياتهم ، فدخل كل ذلك في أصول معاشهم وصار لا يخرج من قلوبهم الا أن تمزج وتولد من ذلك داء عضال ، دخل في جميع أعضاء المدينة وآفة عظيمة ، ولم يبق منهم أحد ، من أسواقهم ورستاقهم وغنيهم وفقيرهم ، الا قد استولت عليه واخذت بتلابيبه وأعجزته في نفسه وأهاجت عليه غموما وهوما لا ارجاء لها ، وذلك أن تلك الأشياء لم تكن لتصل الا ببذل أموال خطيرة ولا تحصل الا بتضعيف الضرائب على الفلاحين والتجار وأشباههم ، والتضييق عليهم ، فان امتنعوا قاتلوهم وعذبوهم وان أطاعوا جعلوهم بمنزلة الحمر والبقر يستعمل في النضح والدياس والحصاد ، ولا تقتنى الا ليستعان بها في الحاجات ثم لا تترك ساعة من العناء حتى صاروا لا يرفعون رؤوسهم الى السعادة الاخروية أصلا ولا يستطيعون ذلك ، وربما كان أقليم واسع ليس فيه أحد يهيمه دينه (١) » .

اتجاه عالمي جديد :

وقد غيرت البعثة المحمدية هذا الوضع وقلبت رأسا على عقب ، فاكتسحت العالم المتمدن كله . موجة قوية من الايمان والطلب لله ، والجهاد في سبيله والسعى للأخرة وادالة الانسانية من أعدائها ، وانهاض الأمم من كبوتها ، واخراج الناس من عبادة العباد الى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الأديان الى عدل الاسلام ، واتجهت الى هذه الغاية هم أهل المعازم وكفاية أهل المواهب ، وذكاء الأنكياء ، وسليقة الأدباء ، وقريحة الشعراء ، وسيوف الأقوياء ، وأقلام العلماء ، وعبقرية النبغاء ، وكثر في هذا العالم الذي لم يكن يعرف غير ضرب واحد وغير طراز واحد من الانسانية ، وهو عابد النفس وأسير الشهوة وصريع الهوى ، كثر في هذا العالم في كل عصر وفي كل بقعة عباد مخلصون ، وعلماء ربانيون ، وحكام عادلون ، وملوك زاهدون ،

(١) حجة الله البالغة (باب اقامة الارتقاقات واصلاح الرسوم) .

وأبطال مجاهدون ، لا يحصيهم كثرة من أحصى رمال عالج وحصي البطحاء ، يباهى بهم الله الملائكة ويقف أمامهم التاريخ خاشعا ، والأعداء مقنمى رؤوسهم ، وانتشر العلم الصحيح النافع ، والعمل المفاضل الصالح ، والإرادة الخيرة القوية ، والجماعة المؤمنة المجاهدة ، التي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتؤمن بالله ، وتجاهد في سبيل الله ، ولا تخاف لومة لائم ، وأتصل تاريخ الاصلاح والجهاد والدعوة والارشاد لا تتخلله فترة « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون (١) » .

الامة المحمدية معجزة الرسول :

وقد أحسن شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تصوير اثر البعثة المحمدية وفضلها وانتاجها في كتابه « الجواب الصحيح » يقول رحمه الله :

«وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم من آياته ، وأخلاقه وأقواله وأفعاله وشريعته من آياته ، وأمته من آياته ، وعلم أمته ودينهم من آياته ، وكرامات صالحى أمته من آياته ..»

ولم يزل قائما بأمر الله على أكمل طريقة وأتمها ، من الصدق والعدل والوفاء ، لا يحتفظ له كذبة واحدة ولا ظلم لأحد ، ولا غدر بأحد ، بل كان أصدق الناس وأعدلهم وأوفاهم بالعهد مع اختلاف الأحوال عليه من حرب وسلم ، وأمن وخوف ، وغنى وفقير ، وقلة وكثرة . وظهوره على العدو تارة ، وظهور العدو عليه تارة ، وهو على ذلك كله ملازم لأكمل الطرق وأتمها ، حتى ظهرت الدعوة في جميع أرض العرب التي كانت مملوءة من عبادة الأوثان ومن أخبار الكهان وطاعة الملجوق في الكفر بالخالق وسفك الدماء المحرمة وقطيعة الأرحام ، لا يعرفون آخرة ولا معادا ، فصاروا أعلم أهل الأرض وأدينهم وأعدلهم وأفضلهم ، حتى ان النصرارى لما رأوهم

(١) صحيح البخارى ج ٢ ص ١٠٨٧ .

من حين قدموا الشام قالوا ما كان الذين صحبوا المسيح بأفضل من هؤلاء ، وهذه آثار علمهم وعملهم في الأرض وآثار غيرهم ، يعرف العقلاء فرق ما بين الأمرين .

وأمتة أكمل الأمم في كل فضيلة ، فإذا قيس علمهم بعلم سائر الأمم ظهر علمهم ، وإن قيس دينهم وعبادتهم وطاعتهم لله بغيرهم ، ظهر أنهم أدين من غيرهم ، وإذا قيس شجاعتهم وجهادهم في سبيل الله وصبرهم على المكروه في ذات الله . ظهر أنهم أعظم جهادا وأشجع قابولا ، وإذا قيس سخاؤهم وبذلهم وسماحة أنفسهم لغيرهم تبين أنهم أسخى وأكرم من غيرهم ، وهذه الفضائل به نالوها ومنه تعلموها وهو الذي أمرهم بها ، لم يكونوا قبله متبعين لكتاب جاء هو بتكيله كما جاء المسيح بتكميل شريعة التوراة ، وكانت فضائل أتباع المسيح وعلومهم ، بعضها من التوراة وبعضها من الزيور وبعضها من النبوءات ، وبعضها من المسيح

وأما أمة محمد صلى الله عليه وسلم فلم يكونوا قبله يقرأون كتابا بل عامتهم ما آمنوا بموسى وعيسى وداوود ، والتوراة والإنجيل ، والزيور إلا من جهته ، فهو الذي أمرهم أن يؤمنوا بجميع الأنبياء ويقرأوا بجميع الكتب المنزلة من عند الله ، ونهاهم أن يفرقوا بين أحد من الرسل فقال تعالى في الكتاب الذي جاء به « قولوا آمنا بالله الى قوله وهو السميع العليم (١) (٢) » .

(١) البقرة (٢) ملتقط من « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » .

المحاضرة السادسة

مأثرة النبوة المحمدية

أهمية الإنسان :

إن مصير العالم أم يزل ولا يزال مربوطا بناصية الإنسان ، وفيه سر سعادته وشقائه فإذا وجد الإنسان الحقيقي وفقد كل ما يعتز به هذا العالم من ثروة وزينة وجمال ، لم يكن رزءا كبيرا أو خسارة فادحة ، وكان وجود الإنسان الحقيقي خلفا لكل فائت ، وعضوا عن كل مفقود ، وسندا لكل عوز ، وأعاد الإنسان الى العالم بنشاطه وحيويته وإنتاجه وعزيمته كل ما فقده هذا العالم ، أجمل وأكمل ، وأكثر وأوفر ، وإذا خير هذا العالم أو من يهيم أمره بين الإنسان من غير شيء وبين كل شيء من غير الإنسان ، واستعمل عقله وما وهبه الله من قوة الرشيد والتميز لكأنت خيرته « الإنسان » من غير شك ومن غير تردد ، فالإنسان هو الذي خلق له هذا العالم وبسببه نال هذه القيمة والشرف .

ليس شقاء هذا العالم في فقد الآلات والوسائل ، إن شقائه في سوء استعمالها وفي وضعها في غير محلها ، إن سبب كل نكبة نكب بها هذا العالم في تاريخه الطويل الملىء بالأحداث ، هو

ضلال الانسان وانحرافه عن الجادة المستقيمة ، وعن فطرته السليمة ، أما اقوى والوسائل فلم تكن الا آلات صماء بريئة في يده تمثل أمره وتنفذ رغباته ، واذا كانت لها جناية فهي أنها ضمت الى هذه النكبة سرعة في الوصول والانتشار ، وسعة في المساحة والامتداد .

اسرار الفطرة الانسانية وعجائبها :

ان هذا الكون الواسع ملء بالاسرار ملىء بالعجائب ، وان جماله ليبيهر الأبواب ، ويثير الدهشة والاستغراب ، ولكنه اذا قيس بأسرار الفطرة الانسانية وعجائبها ، وكنوزها ودفائنها ، والى سعة القلب الانساني وبعد اغواره ، والى سمو الفكر الانساني وسعة آفاقه ، والى لوعة الروح الانسانية وقلتها ، الى آماله البعيدة التي لا تكاد تنتهي ، والى طموحه الذي لا يشبع ولا يرضى بأعظم مقدار من الفتوح والذات والخيرات والمسرات ، والملك والسيادة ، والنعيم والسعادة ، والى مواهبه المتنوعة المتناقضة ، الواسعة الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى ، كان هذا الكون الواسع أمامه قطرة من بحر أو ذرة من صحراء ، وغاب في سعة القلب الانساني وأعماقه كما تغيب الحصاة الصغيرة في البحار العميقة الزاخرة ، ان الجبال تتضائل أمام ايمانها الواثق الزاسخ ، وان النار لتتطفئ وتحقر نفسها أمام حبه الولوع الوهاج ، وان البحار لتخجل أمام دمعة طاهرة انحدرت من عين الانسان خشية الله ، أو رحمة على ضعيف ، أو ندامة على تفریط ، ان الانسان اذا تجلى جمال سيرته وحسن خلقه ورقة عاطفته أزرى بكل جمال في هذا العالم ، وبهر كل حسن في هذا الكون انه واسطة العقدة وبيت التصيد ، وأعظم آية من آيات الخلاق المبدع الحكيم ، الذي خلقه في أجمل صورة واكمل سيرة وأحسن تقويم .

الانسان فوق كل مساومة وتقويم :

ان العالم بما فيه من خزائن وكنوز ، وثورات وحكومات ، لا يستطيع ان يقوم عقيدة الانسان التي لا تعرف الشك والضعف .

والحب الذي لا يعرف المادة والأشكال ، والعطف الذي لا يعرف الفوارق والحدود ، والأخلاص الذي لا يعرف الأغراض والمنافع ، والأخلاق التي لا تعرف المساومة وجزاء الشر بالشر ، والخدمة المخلصة التي لا تريد جزاء ولا شكورا ، ان الانسان اذا عرف نفسه وطلب قيمته عجز العالم عن مساومته ، واذا اتسع وأرخى لعزيمته وخواطره العنان ، وأرسل النفس على سجيتها ، ضاق هذا العالم وانضوى حتى أصبح قفصا صغيرا لا هواء فيه ولا نور ، انه لا تسبر أعماقه ، ولا يبلغ اغواره ، ولا يحاط بأسراره ، ولا تكتنه حقيقته ولا تنفذ عجائبه ، علمه وحلمه ، وكرمه ونبيله ، ومحبه ورحمته ، وعطفه واحسانه ، ورقة شعوره ودقة احساسه ، واثيره وزهده واعتداده بكرامته ، ونفيه لذاته واستعداده القريب لمعرفة ربه ، والتفاني في سبيل مرضاته ، وفي سعادة بنى نوعه ، وتلقيه لكل علم دقيق عميق ، ولكل علم مفيد جديد ، كل ذلك مما تحار فيه الابواب ، ويقصر عنه ذكاء الأذكيا .

مآثرة النبوة المحمدية :

ان وجود هذا الانسان مفتاح كل سعادة وخير ، وحل كل أزمة ومشكلة ، وان تقويمه اذا زاغ وتهذيبه اذا فسد ، وتكثيره اذا عز وندر ، واعادته اذا ضاع وفقد . موضوع كل نبوة ، ومهمة كل نبي في عصره ، وان وجود هؤلاء الأفراد بهذه الكثرة وبهذا الانتشار وفي صورة أتم لم يسمع بمثلها في التاريخ ولم تقع عليها عين السماء ولم تطلع عليها الشمس ، وان انخراطهم في سلك واحد ، واجتماعهم في شمل واحد ، ثم تعاونهم الوثيق على مبدأ واحد ، وهدف واحد ، مآثرة النبوة المحمدية ومعجزتها الكبرى .

ان محمدا صلى الله عليه وسلم بدأ عمل تكوين الأفراد وتهذيب الانسان من مستوى لم يبدأ نبي أو مصلح عمله منه ولم يكلف به ، لأنه وجد مستوى أرفع منه بكثير ، وبلغ صلى الله عليه وسلم بهذا العمل الى مستوى لم يبلغ عمل نبي اليه ، بدأ من

للآخرة ، فإذا كان هذا الفرد تاجرا فهو التاجر الصدوق الأمين ، وإذا كان فقيرا فهو الرجل الشريف الكادح ، وإذا كان عاملا فهو العامل المجتهد الناصح ، وإذا كان غنيا فهو الغنى السخي المواسي ، وإذا كان قاضيا فهو القاضي العادل الفهم ، وإذا كان واليا فهو الوالي المخلص الأمين ، وإذا كان سيديا رئيسا فهو الرئيس المتواضع الرحيم ، وإذا كان خادما أو أجيرا ، فهو الرجل القوى الأمين ، وإذا كان أمينا للأموال العامة فهو الخازن الحفيظ العليم .

اللبنيات التي قام عليها المجتمع الإسلامي :

وعلى هذه اللبنيات قام المجتمع الإسلامي وتأسست الحكومة الإسلامية في دورها ، ولم يكن المجتمع والحكومة بطبيعة الحال الا صورة مكبرة لأخلاق الأفراد ونفسياتهم ، فكان المجتمع مجتمعا صالحا آمنا مؤثرا للآخرة على الدنيا ، متغلبا على المادة غير محكوم لها ، انتقل اليه صدق التاجر وأمانته ، وتعفف الفقير وكدحه ، واجتهاد العامل ونصحه ، وسخاوة الغنى ومواساته ، وعدل القاضي وحكمته ، وإخلاص الوالي وأمانته ، وتواضع الرئيس ورحمته ، وقوة الخادم ، وحراسة الخازن ، وكنائت هذه الحكومة حكومة راشدة مؤثرة للمبادئ على المنافع ، والهداية على الجباية ، وبتأثير هذا المجتمع وبنفوذ هذه الحكومة وجدت حياة عامة ، كلها إيمان وعمل صالح ، وصدق وإخلاص ، وجد واجتهاد ، وعدل في الأخذ والعطاء ، وانصاف مع النفس والغير (١) .

نجاح هذا الفرد في الحن والتجارب :

إن هذا الفرد قد نجح في كل اختبار ومحنة تظهر مواطن الضعف ، وتبرز كوامن النفس ، وبرز فيها كالأبريز الخاص

(١) من رسالة « من غار حراء » للمؤلف .

مستوى تنتهي هناك الحيوانية وتبتدىء منه الإنسانية ، وبلغ به الى مستوى هو منتهى الإنسانية ، ولا منزلة فوقه الا النبوة ، وقد ختمت بمحمد صلى الله عليه وسلم .

واقع أجمل من الخيال والشعر :

إن كل فرد من هؤلاء الأفراد معجزة مستقنة وآية من آيات النبوة ، ومآثرة من مآثرها الخالدة ، وبرهان ساطع على أشرفية النوع الانساني ، إن مصورا لم يصور بريشته البارعة ومخيلته السخية صورة أجمل وأبدع من ما كان عليه هؤلاء الأفراد في عالم الحقيقة والواقع ، وفي شهادة التاريخ ، وإن شاعرا لم يتخيل بخياله الخصيب وقريحته الفياضة ومقدرته الشعرية ، أو صافيا أجمل وسيرة أعطر ، وجبالا أكمل ، مما وجد في هؤلاء الأفراد ، ولو اجتمع أدياء العالم في صعيد واحد فعرضوا نموذجا انسانيا رفيعا لم يصل بهم الخيال الى ما وصل اليه الواقع في حياة هؤلاء الأفراد ، الذين نشأوا في حجر النبوة وحضانتها ، وتخرجوا في مدرستها ، إن إيمانهم الراسخ ، وعلمهم العميق ، وقلوبهم البار ، وحياتهم البعيدة عن كل تكلف وصناعة ، وعن كل رياء ونفاق ، وتجردهم من الأنانية ، وخشيتهم لله وعفتهم ونزاهتهم وعطفهم على الانسان ، ورقة مشاعرهم وشجاعتهم وجلادتهم ، وحرصهم على العبادة ، وحنينهم الى الشهادة ، وفروسياتهم وفنونهم وأحياءهم الليل ، وزهدهم في حطام الدنيا وزخارف الحياة ، وعدلهم وسهرهم على مصالح الرعية وإيثار راحتها على راحتهم ، كل ذلك لا يوجد له نظير في الأمم ولا سواك في التاريخ .

الفرد الصالح في مختلف مظاهره ومجالات الحياة :

أبرز رسول الله صلى الله عليه وسلم برسالاته ودعوته الفرد الصالح المؤمن بالله ، الخائف من عقاب الله ، الخاشع الأمين ، المؤثر للآخرة على الدنيا ، المستبين بالمادة ، المتغلب عليها بإيمانه وقوته الروحية ، يؤمن بأن الدنيا خلقت له وأنه خلق

والتبر المسبوك ، لا غش فيه ولا زيف ، وأبرز في كل موقف دقيق مخرج من قوة الايمان وقوة الإرادة وقوة النفس وتأثير التربية النبوية ، ومن رقة العاطفة ومن دقة الشعور بالمسئولية ومن المستوى الرفيع للأمانة والزهادة والايثار ، ما لم يتوقعه علماء النفس والأخلاق ، ومن جربوا الانسان وكتبوا تاريخه في العصور والأزمان المختلفة .

وكان من ادق هذه المواقف موقف الأمير والحاكم الذي ليس مستؤولا أمام أحد ، ولا تراقبه عين ، ولا تناقشه محكمة أو لجنة ، يزهّد في ما أبيع له وفي خاصة ماله ، وفي النزر اليسير التفاهة الذي أتاحتها الشريعة وجرى به العرف ، واستهان به الناس في كل زمان .

زهّد الولاية وتفشّهم في الحياة :

ومن أروع الأمثلة لذلك أن امرأة أبي بكر الصديق خليفة المسلمين اشتبهت حاواً واستفضلت من نفقتها من عدة أيام ما تشتريه به ، فلما علم ذلك رد الدريهمات الى بيت المال وأسقط من نفقته كل يوم ما فضل منها لثمن الحلوى ، لأنه ليس من الحاجات التي يعيش عليها الانسان وليس بيت مال المسلمين لتتفرقه به أسرة الحاكم وتتوسع به في المطاعم .

وهنا تصوير أمين لوكب الخلافة ، وحكاية رحلة رسمية في مصلحة حكومية لحاكم من أقوى الحكام في ذلك العصر ، ومن أوسعهم مملكة ، والذي كان اسمه يخلع القلوب ويرجف البوادر من بعيد ، ونترك المؤرخ يحكى هذه الرحلة العجيبة ويصورها بقلمه البليغ .

« قدم عمر بن الخطاب الجابية على طريق ايليا على جمل أوراق ، تلوح صلغته للشمس ليس عليه قلنسوة ولا عمامة ، تصطفق رجلاه بين شعبتى الرجل بلا ركاب ، وطأه كساء انجاني ذو صوف ، هو وطاة اذا ركب ، وغراشته اذا نزل ، حقيقته نمره

أو شملة محشوة ليفا ، هي حقيقته اذا ركب ، ووسادته اذا نزل ، وعليه قميص من كرابيس قد رسم وتخرق جنبه ، فقال ادعوا لي رأس القوم فدعوا له الجلومس فقال اغسلوا قميصي وخطوه وأعبروا لي ثوبا أو قميصا ، فأتى بقميص كتان فقال ما هذا ؟ قالوا كتان ، قال وما الكتان ؟ فأخبروه فنزع قميصه فغسل ورقع وأتى به ، فنزع قميصهم ولبس قميصه ، فقال له الجلومس أنت ملك العرب وهذه بلاد لا تصلح بها الإبل ، فلو لبست شيئا غير هذا وركبت برذونا لكان ذلك أعظم في أعين الروم ، فقال نحن قوم أعزنا الله بالاسلام فلا تطلب لغير الله بديلا ، فأتى ببرنون فطرح عليه قطيفته بلا سرج ولا رحل ، فركبه بها فقال احبسوا احبسوا ما كنت أرى الناس يركبون الشيطان قبل هذا فأتى بجمله فركبه (١) » .

وروى البري قال : « خرج عمر وخلف عليا رضى الله عنهما على المدينة وخرج معه بالصحابة وأغدوا السير واتخذ ابلة (على ساحل البحر الأحمر) طريقا حتى اذا دنا منها تحنى عن الطريق ، واتبعه غلامه فنزل فيال ثم عاد فركب بعير غلامه وعلى رحله فرو مقلوب ، وأعطى غلامه مركبه ، فلما تلقاه أوائل الناس ، قالوا أين أمير المؤمنين ؟ قال أمامكم ! (يعنى نفسه) فذهبوا الى أمامهم فجاوزوه ، حتى انتهى هو الى ابلة ، فنزلها وقيل للمتلقين : قد دخل أمير المؤمنين ابلة ونزلها فرجعوا اليه (١) » .

نموذج انساني رائع :

ان هذه الملامح والقسمات الجميلة الرائعة من زهد وتواضع ، وايتار وعطف ومواساة ، وشجاعة وعدل ، وحكمة وصدق ، منتشرة في وصف الخلفاء الراشدين وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لو جمعها مؤرخ أو أديب أو عالم من علماء النفس والأخلاق ، وكون منها شخصية واحدة أو صورة موحدة لكانت

(١) البداية والنهاية ج ٧ ص ٥٩ ، ٦٠ .

(٢) الطبرى ج ٤ ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

من أسمى السير البشرية ، ومن أجمل الصور الانسانية في المصور
الانسانى الكبير ، وفي المعرض البشرى التاريخى العالى ، ولكننا
إذا لم نجد مع الأسف وصفا كاملا شاملا وتصويرا جامعا لهذه
الجماعة الفريدة التى أبرزتها للعالم تربية الرسول صلى الله عليه
وسلم وصحبته ، فإننا نجد وصفا لبعض الشخصيات يتسم بالبلاغة
وحسن التصوير ودقة التعبير ، وقد عرف العرب قديما بأجادة
الوصف ، وبلاغة التصوير ، وصدق التعبير ، وبهذا الوصف
نستطيع أن نستعرض آثار التربية النبوية ومدى نجاحها وابداعها ،
ونرى نموذجا رفيعا لهذا الجيل الذى ظهرت فيه معجزة الرسول
في أروع مظاهرها . وهى صفة على بن أبى طالب عم الرسول
ورابع الخلفاء الراشدين ، الذى نشأ في بيت الرسول وفي حضناته
وتربيته ، وهى قطعة تستحق أن تعتبر من أجمل القطع الأدبية
العالمية الخالدة تأثيرا وتعبيرا وتصويرا ، قال ضرار بن ضمرة
وقد طلب منه الخليفة معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه أن يصف
له على بن أبى طالب الذى صحبه طويلا وعرفه من قرب فقال :

« والله كان بعيد المدى شديد القوى ، يقول فصلا ويحكم
عدلا ، يتفجر العلم من جوانبه ومن نواحيه ، يستوحش من الدنيا
وزهرتها ، ويستأنس بالليل وظلمته ، كان والله غزير الدمعة ،
طويل الفكرة ، يقلب كفه ، ويخاطب نفسه ، ويعجبه من اللباس
ما خشن ، ومن الطعام ما جش ، كان - والله - كأحدنا يجيبنا
إذا سألناه ، ويبتدئنا إذا أتينا ، ويأتينا إذا دعواناه ، ونحن
- والله - مع تقريبه لنا وقربه منا ، لا نكلمه هيبه ولا نبتديه ،
فان تسم فنعن مثل اللؤلؤ المنظوم ، يعظم أهل الدين ويحب
المساكين ، ولا يطمع القوى في باطله ، ولا ييأس الضعيف من
عدله ، وأشهد بالله لقد رأيت في بعض مواقفه وقد أرخى الليل
سجوفه ، وغارت نجومه ، وقد مثل في محرابه قابضا على لحيته
يتململ تلملم السليم ، ويبكى بكاء الحزين وكأنى أسمع وهو
يقول :

يا دنيا ! أبى تعرضت أم لى تشوفت ! هيهات هيهات غرى
غبرى قد باينتك ثلاثا لا رجعة فيك ! فعمرك قصير ، وعيشك

حقير وخطرك كبير ! آه من قلة الزاد وبعد السفر ، ووحشة
الطريق (١) !

للجيل الإسلامى الاول :

وبالجملة فقد كان هذا الجيل الذى انشأته دعوة الرسول
صلى الله عليه وسلم . وأحكمته تربيته من أفضل الأجيال البشرية
في تاريخ الانسان كله ، وأجملها وأكملها وأجمعها للحاسن
الانسانية ، وقد وصفه أحد أفرادها ، عبد الله بن مسعود رضى
الله عنه ببلاغة نادرة وكلمات موجزة عميقة دقيقة ، زاخرة
بالمعاني الكبيرة البعيدة المدى ، فقال « أبر الناس قلبا وأعمقهم
علما وأقلهم تكلفا ، اختارهم الله لصحبة نبيه واعزاز دينه (٢) » .

وإذا قورن هذا الجيل بجيل آخر رجح عليه في المجموع وكانت
مآخذه مما لا يخلو منه بشر ضئيلا في جنب محاسنه ومظاهره
العظيمة البشرية ، وروائع الكمال الخلقية التى يخلو عنها التاريخ
الانسانى ، وقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية بليغا ودقيقا
في قوله :

« وخيار هذه الأمة هم الصحابة فلم يكن في الأمة أعظم اجتماعا
على الهدى ودين الحق ، ولا أبعد عن التفرق والاختلاف منهم ،
وكل ما يذكر عنهم مما فيه نقص فهذا اذا قيس الى ما يوجد
في غيرهم من الأمة كان قليلا من كثير ، واذا قيس ما يوجد في الأمة
الى ما يوجد في سائر الأمم كان قليلا من كثير ، وانما يغلط من
يغلط أنه ينظر الى السواد القليل في الثوب الأبيض ، ولا ينظر
الى الثوب الأسود الذى فيه بياض وهذا من الجهل والظلم (٣) » .

(١) صفة الصنوة لابن الجوزى .

(٢) رواه الدرামী في مسنده .

(٣) منهاج السنة ج ٣ ص ٣٢٤ .

ولم يكن تأثير دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم وتعليماته وتأثير المثل العالية التي عرضها في سيرته وسيرة أصحابه ، وطالب بها أتباعه من بعده ، لم يكن تأثير شخصيته التي ظلت ولا تزال المثل الكامل والنبيراس المضيء المرشد الدائم لجميع الأجيال في جميع الأحوال ، قاصرا على العهد الذي بعث فيه والجيل الذي أزرعه وسعد بصحبته ، إنما كان الشمس التي تونع في نورها وحرها الزرع والأشجار في جميع الأعصار والأمصار ، وترسل أشعتها وخطوطها الذهبية الحافلة بالقوة والحياة من مكانها العالى ، فينتفع بها القاصى والدانى ، لأن دعوته الى الإيمان بالله واليوم الآخر ، واستحضار رقابة الله والخوف من سخطه وعقابه ، والطمع في أجره وثوابه ، والأشفاق من النار ، والحنين الى الجنة ، وسيرته صلى الله عليه وسلم في الزهد في حطام الدنيا ، والرغبة في الآخرة ، والشغف في العيش ، وإيثار الناس على نفسه وأسرته وعشيرته ، في ما يرفعهم ويعينهم ، وكلما كان الرجل أبعد كان في الإيثار أحق وأقرب ، وكلما كان أقرب كان في المنافع واللذائذ أبعد ، وفي الجهاد والمثقة والتضحية أقرب ، وكان أخذه بمكارم الأخلاق والأحاسيس الدقيقة الرقيقة التي لا يتخيلها الأذكياء ، ولا يخطر من علماء النفس والأخلاق على بال ، كان كل ذلك مدرسة جامعة عالمية خالدة ، ينسب اليها ويلتحق بها أجيال بعد أجيال ، ويتخرج فيها علماء وزعماء وملوك وحكام وعباد وزهاد ، كلهم تلقوا فيها دروس الأخلاق والانسانية الأولية ثم فاقوا فيها ، وبذوا العالم والأمم في سمو أخلاقهم ولطافة حسهم ورقة شعورهم ، ودقة أمانتهم ، وكثرة زهادتهم ، على تملكهم لأسباب البذخ والتترف ، ومفاتيح الخزائن وأزمة الدول ، ومصير الشعوب والأمم ، يخضع لهذا التأثير أفراد يتفاوت بهم الزمان ويبعد بهم المكان ، ولكنهم مزرع الإيمان ، وغرس النبوة ، وثمره الدعوة الإسلامية ، ومأثرة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وانتاجها . وكل حسن في سيرتهم وأخلاقهم مقتبس من مشكاة النبوة المحمدية العالمية ، لآمنة لأبائهم وبيئتهم وثقافتهم وذكائهم على هؤلاء الأفراد في هذه العقيدة ، وفي هذه السيرة ، وفي هذه

الأخلاق ، فلولا دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعليماته ولولا حبه العميق له وخضوعهم لتأثير سيرته ولولا فضل الإسلام لكانوا في العقيدة عباد الأصنام ، وفي الأخلاق أشبه بالسباع والأنعام ، لا توحيد ولا تقوى ، ولا زهد ولا إيثار ، ولا رقة عاطفة ولا كرم خلق .

بعض تلاميذ المدرسة المحمدية العالمية الخالدة وأمثلة من حياتهم وأخلاقهم :

وخذوا أحد تلاميذ هذه المدرسة وخريجها ، ومما غرسته النبوة المحمدية بعيدا عن مهد الإسلام ، وعن جزيرة العرب ، بعيدا عن عهد الرسالة والصحابة ، بعيدا عن الأصل المضرى ، والدم العربى ، وهو السلطان صلاح الدين بن أيوب الكردى العجوى في القرن السادس الهجرى (١) يقول عنه صديقه ورفيقه ابن شداد :

انه ملك ما ملك ومات ولم يوجد في خزانته من الفضة الا سبعة وأربعون درهما ناصرية ، ومن الذهب الا جرام واحد صورى ، ما علمت وزنه .

ورأيته قد اجتمع عنده جمع من الوفود بالقدس الشريف وكان قد عزم على التوجه الى دمشق ولم يكن في الخزانة ما يعطى الوفود فلم أزل أخاطبه في معنائهم حتى باع أشياء من بيت المال ، وفضضنا ثمنها عليهم ، ولم يفضل درهم واحدا .

وكان رحمه الله يعطى في وقت الضيق كما يعطى في حال السعة وكان نواب خزائنه يخفون عنه شيئا من المال حذرا أن يفاجئهم مهم لعلمهم بأنه متى علم به أخرجه ، وسمعته يقول في معرض حديث جرى ، يمكن أن يكون في الناس من ينظر الى المال

(١) توفى صلاح الدين عام ٥٨٩ هـ .

كما ينظر الى التراب ، فكأنه أراد بذلك نفسه رحمه الله تعالى ، وكان يعطى فوق ما يؤمل الطالب ، فما سمعته يقول أعطينا لفلان (١) .

ولما مات هذا السلطان العظيم الذى كان يحكم من حدود الشام الشمالية الى صحراء النوبة فى الجنوب ، لم توجد فى خزائنه ما يكفونونه به وينفقون على تجهيزه يقول ابن شداد :

« ثم اشتغل بتفسيه وتكفينه ، فما أمكننا أن ندخل فى تجهيزه ما قيمته حبة واحدة إلا بالقرض ، حتى فى ثمن التبن الذى بلى به الطين ، وأخرج بعد صلاة الظهر فى تابوت مسجى بثوب فوط وكان ذلك وجميع ما احتاج اليه من الثياب فى تكفينه قد أحضر القاضى الفاضل من وجه حل عرفه (٢) .

ويتحدث مؤرخه الانجليزى الشهير (Stanley Lanpool) فى كتابه المشهور (صلاح الدين) فيقول :

إذا لم يتيسر للعالم أن يعرف شيئا عن صلاح الدين غير ذلك الكرم وتلك السماحة التى عامل بها أهل القدس المسيحيين الأعداء حين فتحه وردة للإسلام كان ذلك كافيا ليثبت أنه لم يكن أعظم رجل فى عصره فحسب فى علو الهمة وفى العظمة والشهامة والفتوة ، بل كان أعظم رجل فى هذا الشأن فى كل عصر وزمان (٣) .

ولم يزل هذا التأثير قويا سخيا بعيد المدى واسمع الأرجاء والأفاق ، يصنع عجائبه ويظهر روائعه فى بلاد تقع فى أقصى العالم الإسلامى ، وفى شعوب حديثة العهد بالإسلام ، وفى رجال لا يتصلون بدعاة الإسلام الأولين فى نسب أو لغة أو ثقافة ،

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية لابن شداد ص ١٣ ، ١٤ .

(٢) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية لابن شداد ص ٣٥١ .

(٣) أيضا ص ٢٠٥ .

يسلم احدهم على يد داعية اسلامى ، أو مرشد روحانى وينشأ فى اولاده وأحفاده الأتريين ملك فى صورة ملك وزاهد فقير فى لباس ملك ، خشية وتقوى ، وعدل وقسط ، وعطف ومواساة ، ورحمة وبر ، واحتساب ونية ، وصدق وإخلاص ، لا توجد أمثله فى زهاد الأمم الأخرى وأحبارها ورهبانها فضلا عن ملوكها وسلطانيها ، وأقتصر هنا فى تاريخ الهند الإسلامى الطويل الزاهى بهذه النماذج الرفيعة ، على قصة واحدة لا تبلى جدتها وطرافتها ، ولا تنتهى روعتها على مر الأيام وكثرة الاعادة والتكرار .

كان بين السلطان مظفر الحلیم ملك كجرات (م ٩٢٢ هـ) وبين معاصره السلطان محمود الخلجى ملك ماندو منافسة قديمة ، وقد كان الخلجى معتديا مهاجما دائما يزحف بجيوشه على مملكة كجرات الإسلامیة ، التى يحكمها مظفر الحلیم ، ويضطر الحلیم الى الدفاع من ملكه ورد الغارة عليه ، حتى حدث ما غير الوضع وجعل من الملك المعتدى المدل بقوته وأبنته طريدا لاجئا يطلب من عدوه الكريم النفس الفوث والنجدة ، فقد استولى على ملكه الواسع الجميل وزيره الوثنى مندلى رأى واغتصب بلاده ، ولم يجد السلطان محمود ملجأ الا فى عطف عدوه القديم مظفر الحلیم وفى حميته الإسلامیة ، فلقى منه من البر والكرم وحسن الاجابة وسرعة الاغاثة ما لا يصدر الا عن رجل لا تأخذه حمية الجاهلیة ولا يؤمن بالفلسفة المادية « الانتهازية » فلم يستغل هذا الوضع ولم يشمت بالعدو السليب الضعيف ، بل انتهب هذه الفرصة لارضاء الله وحده ولاخزاء الشيطان ، فتقدم بجيوشه الكثيفة المنصورة الى مندو ، واهتم بقضيتها كقضية بلاده بل أكثر ، وجازف بحكومته وحرية بلاده فى سبيل المحافظة على حرية بلد اسلامى منافس ، واعداد الإسلام الى مركزه واعتباره فى هذه الدولة ، وتقدمت القوات البرهيمية والأمارات الوثنية الى اغاثة صديقها مندو ، ووقعت حرب طاحنة مجنونة كثر فيها القتلى ، وسالت الأزقة بالدماء الغزيرة ، حتى استولى مظفر الحلیم على البلاد وهزم العدو هزيمة منكرة ، وأحرقت الأیرات الوثنيات والحرم الملكى أنفسهم على عادة ملوك راجبوات ، وعادت البلاد الى الإسلام .

الزوجات والحرم ، وهن يستقبلن الفاتح المحسن ويحيينه بشعور
 بواسم : مالك يا سيدى لا ترفع رأسك ولا تنظر الى هذا المنظر!؟
 فقال المظفر انه لا يحل لى يا محمود وقد قال الله « قل للمؤمنين
 يفضوا من ابصارهم » فقال الملك الذكى انهن امائى وانا عبدك
 قد أسرتنى وملكتنى باحسانك فهم عبيد وهن الهاء لك مرتين ،
 ولكن مظفر لم يقتنع بهذا الجواب اللبق وعرف أن ما حرمه الله
 لا يحله أحد .

وهكذا أثبت الملك الورع كرم نفسه وعفة باطنه وروحه ،
 وشدة خضوعه لتأثير الاسلام ولتأثير المثل العليا الاسلامية التى
 نشأ على حبها والتمسك بها فى حياته .

انه رجل يغيب نسبه الاسلامى بعد واسطتين أو ثلاث فى دياجير
 الكفر والجاهلية الهندية ، ويفقد المؤرخ النسابة الأسماء الاسلامية
 بعد جده الذى أسلم فى أيام فيروز تغلق فى القرن الثامن الهجرى ،
 وتفاجئه أسماء عجمية هندية ، لا يعرف أصلها ولا يفهم معناها ،
 فلم يتعلم مظفر هذا النبل وهذا الورع الا فى مدرسة محمد صلى
 الله عليه وسلم التى دخلها مخلصا جادا مقدرًا للاسلام نعمته ،
 ولحمد صلى الله عليه وسلم فضله ورفده ، مقبلا على هذا الدين
 بشغف واجلال ، كارها للدين الذى كان عليه آباؤه وأبناء قبيلته
 وأسرتة .

انتاج هذه المدرسة المباركة الدائم فى كل الأمم وفى جميع العصور:

وكم لهذه المدرسة المباركة المنجية المنتجة من أبناء كرام بررة
 فى بلاد الشرق والغرب ، وفى بلاد العسرب والعجم ، وفى قرون
 متقدمة ومتوسطة ومتأخرة ، وكم لهؤلاء الأبناء البارين العظماء
 من مآثر وبطولات ومحامد ومكارم فى كل ناحية من نواحي الحياة
 الانسانية ، وقد تجلى تأثير تربيتها وفضل مؤسسها فى فتوة
 طارق ، وشهامة محمد بن القاسم ، وهمة موسى بن نصير ،
 وفكاهة أبى حنيفة والشافعى ، وصلابة مالك وأحمد بن حنبل ،

وهنا تجلى النبل الانسانى والخلق الاسلامى فى أروع مظاهره ،
 فقد أشار أهل الراى من قادة الجيش على الملك المظفر المنصور
 أن يحتفظ بهذه البلاد الجميلة الغنية الزاهية ، لتصورها البديعة
 التى لا يوجد لها نظير فى الهند ، وقلاعها الحصينة وخزائنها
 الحافلة وخيراتنا الدارة ، وقد ذهبت ضحية سفاهة الملك الراعن
 الضعيف ، وقد فتحتها الملك فتحا جديدا واسترقتها فاستحقها ،
 والملك للقوة والغلبة ، والبلاد للمنتصر .

ولما سمع الملك هذا الراى وعرف ما تحدث به القادة نفوسهم ،
 أرسل الى السلطان يأمره بأن لا يأذن لأحد فى جيشه فى دخول
 البلد ، وسأله السلطان البقاء فى القلعة ، والاستجمام فيها مدة
 من الزمان ، فلم يقبل وأمر جيوشه بالانصراف الى أحمد آباد
 والعودة الى ثكناتها ، وقال للخلى اننى لم أتقدم الى هذه
 البلاد الا لرضا الله تعالى وحده ، وطمعا فى ثوابه وعملا بقوله
 « وان استنصروكم فى الدين فعليكم النصر(١) » والمسلم أخو المسلم
 لا يسلمه ولا يخذله(٢) وقد تحقق ذلك وبيض الله وجهى ووجهك
 وبيض وجه الاسلام ، وقد سمعت من أصحابى ما لو عملت به
 لحبط عملى وضاع جهادى ، والفضل لك ليس لى ، فقد أكرمتنى
 وكنت سببا فى هذه السعادة ، وانا قافل الى بلادى لا أريد أن
 احبط عملى وأخلط عملا صالحا وآخر سيئا . وهنا تحرك الجيش
 المنصور اللجب ، ورفع الفرسان أعنة خيلهم وانصرفوا راشدين.

وبعد أن فتح المظفر « مندو » ودخل محمود فى البلد عزيزا
 مكرما ، أخذ صديقه المظفر ليتنزه ويطلع على ما فى هذا البلد من
 خيرات وخزائن وجواهر وتحف ، فكان الأمر عجيبا وكان البلد
 آية فى الجمال والخصب والثروة وكثرة الترف وكثرة الجوارى
 الحسان والفتيات البارعات فى الجمال ، والسلطان مظفر مطرق
 رأسه غاض بصره لا ينظر لا الى هذا المال ولا الى هذا الجمال ،
 فقال له محمود وهو يمر بصديقه أمنم الأميرات والحشم وبين

(١) الانفال ٧٢ .

(٢) معنى الحديث .

وكرم نور الدين ، وعزم صلاح الدين ، وعبقرية الغزالي ،
وروحانية عبد القادر الجيلاني ، وتأثير ابن الجوزي ، وطموح
محمد الفاتح ، ومغامرات محمود الغزنوي ، ورقة عاطفة نظام
الدين الدهاوي ، وسماحة فيروز شاه الخلجي ، وتبحر ابن تيمية
الحرائي ، وحسن ادارة شير شاه السورى ، وقوة ارادة أورثك
زيب التيمورى ، وفي معارف شرف الدين يحيى المنيرى ، وحقائق
أحمد بن عبد الأحد السرهندي، ودعوة محمد عبد الوهاب النيمى،
وحكمة أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى ، ومن جاء بعدهم من الدعاة
والمصلحين والعلماء الربانيين ، وان الفضل في كل هذه العبقرية
وفي مآثرهم العلمية والعملية الخالدة يرجع الى تعليمات هذه
المدرسة وتربيتها ، والى العهد الزاهر الجديد الذى افتتح بيعة
محمد صلى الله عليه وسلم ، ووجدت فيه المواهب الإنسانية
الفائقة سبيلها ومجال نشاطها ، ووجد من يستخدمها وينتفع بها،
ولا تزال هذه المدرسة — مهما قسا عليها الزمان وتكر لها
المتكرون — تنجب أفاذا في التاريخ وتؤتى أكلها كل حين باذن
ربها ، وتغيث الإنسانية بقيادة مخلصين ، وعلماء ربانيين « أدلة
على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا
يخافون لومة لائم » ولسان الغيب يهتف : « فان يكفر بها هؤلاء
فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين » .

الفهرس

المحاضرة الأولى

النبوة حاجة الإنسانية اليها وفضلها على المدينة

الصفحة	الموضوع
٥	كلمة المؤلف
٨	حديث من وحى المكان
٩	مهمة الجامعة الأساسية
١٠	حاجة العصر الى هذا الحديث
١٠	النظر الى النبوة والانبياء من خلال القرآن
١١	حديث أثر حبيب
١٢	صفوة الخلق والمثل الكامل للإنسانية
١٣	تصوير النبوة والمثل الحكيم
١٩	الوسيلة الوحيدة للمعرفة الصحيحة والهدية الكاملة
٢٠	ضلال الفلسفة اليونانية وسر شقائها وخيبتها
٢٢	عثرة الفلسفة التى نشأت في العصر الاسلامى
٢٢	انفراد الانبياء واختصاصهم بالعلم النافع المنجى
٢٣	مصر الأمم المتمدنة الراقية التى استغنت عن علم الانبياء
٢٣	مثل العلم الذى يجيء به الانبياء مع علوم البشر وصناعاتهم
٢٥	لا استغناء ولا استكبار بعد بعثة الرسول
٢٦	الأمكار الاسلامية والعربية في خطر عظيم

الصفحة	الموضوع
٥٢	السليمة
	البعد عن الأساليب الصناعية والاعتماد على الفطرة

المحاضرة الثالثة

أئمة الهدى وقادة الإنسانية

٥٦	عبث القادة والزعماء بالإنسانية
٥٧	الحاجة الى الأنبياء المعصومين عن الخطأ
٥٨	أمانة واخلاص
٥٩	أمان وضمان للأتباع
٦٠	حقيقة العصمة وطرقها
٦١	جديرون بالطاعة والاتباع
٦٢	محط العناية والرضا
	سر تفضيل عادات وأوضاع على عادات وأوضاع وحقيقة
٦٣	الشعائر
٦٤	مؤسسو حضارة وأسلوب خاص من الحياة
٦٤	حضارة ابراهيمية محمدية
٦٥	خصائص هذه الحضارة وسماتها
٦٦	دعوة القرآن الى اتباع الأنبياء وحثه على تقليدهم
٦٧	الاجلال المنبعث من أعماق القلب ، والحب العاطفى .
٦٧	تأثير عاطفة الحب وسر تفانى الصحابة فى طاعة الرسول
	نتيجة ضعف عاطفة الحب فى العالم الإسلامى اليوم وتأثير
٦٩	ذلك فى الحياة
٦٩	لا فلاح لأمة بعث فيها النبى الا فى اتباعه وايثاره .
٧٠	وضع العالم الإسلامى والعربى اليوم وسببه

٢٦	طوائف العلماء والباحثين فى مدينة جديدة
٢٧	مهمة الأنبياء فى هذه المدينة
٢٨	أهم الواجبات وأقدس المهمات
٢٩	العامل الأساسى الأكبر فى صلاح البشرية وارتقاء المدنية

المحاضرة الثانية

سمات النبوة وخصائص الأنبياء

٣٠	جناية الأساليب الصناعية والمصطلحات السياسية على
	فهم النبوة والأنبياء
٣١	الحاجة الى دراسة القرآن المجردة عن التأثيرات الخارجية
٣١	الفارق الأساسى بين الأنبياء والمرسلين والحكماء والمصلحين
٣٣	الحكمة والتيسير فى دعوة الأنبياء وفى التشريع
٣٥	اخلاص الدين لله وافراده بالعبادة له
٣٨	الجاهلية الخالدة العالمية وجنابتها على البشر
٣٩	فهم الصحابة والعرب الأولين لكلمات القرآن ومصطلحاته .
	ما يجب أن يكون الركن الأساسى فى الدعوات الدينية وشعار
٤٠	الدعاة فى جميع العصور
٤١	وصية للشباب والدعاة والكتاب
٤٢	عقيدة الآخرة والاهتمام بها فى سيرة الأنبياء ودعوتهم .
٤٣	الحافز الحقيقى الى الدعوة وبذل النصح
٤٤	سيطرة هذه العقيدة على اتباع الرسل
٤٤	مناطق الأمر الثواب والجزاء فى الآخرة
٤٥	سيرة الأنبياء وأصحابهم فى الزهد وايثار الآخرة على الدنيا
٤٦	الفرق بين منهج الدعوات النبوية وبين الدعوات الإصلاحية
٤٧	مطالبة بالإيمان بالغيب

الصفحة	الموضوع
٨٨	فقدان الارادة الخيرة القوية
٨٨	فقدان الجماعة التي تنتصر للحق
٨٨	الحاجة الى طلوع شمس جديدة
٨٩	تعاون الفلسفة والوثنية على اضعاف الايمان واضلال الانسان
٩٠	لا يغير الوضع الجاهلى الا الايمان النبوى القوى العالى
٩١	الحاجة الى امة تبعث للاصلاح والكفاح الدائم
٩٢	تأثير البعثة المحمدية
٩٢	مولد عالم جديد
٩٣	تصوير للعصر الجاهلى
٩٤	اتجاه عالمى جديد
٩٥	الامة المحمدية معجزة الرسول

المحاضرة السادسة

مآثر النبوة المحمدية

٩٧	أهمية الانسان
٩٨	اسرار الفطرة الانسانية وعجائبها
٩٨	الانسان فوق كل مساومة وتقويم
٩٩	مآثر النبوة المحمدية
١٠٠	واقع أجمل من الخيال والشعر
١٠٠	الفرد الصالح فى مختلف مظاهره ومجالات الحياة
١٠١	اللبنات التى قام عليها المجتمع الاسلامى
١٠١	نجاح هذا الفرد فى المحن والتجارب
١٠٢	زهة الولاية وتكشفهم فى الحياة

المحاضرة الرابعة

بين الارادة الالهية والاسباب المادية

الصفحة	الموضوع
٧١	تفاوت ما بين الانبياء وخصومهم فى الاسباب المادية
٧٢	شئ مقصود ومطرود مستمر
٧٣	تشجيع على التحربة واطماع فى رحمة الله
٧٤	سنة الله مع جميع انبيائه
٧٥	أعظم تحد للمادية المسرفة وأكبر ثورة على عبادة الاسباب
٧٧	تحدى قصة موسى للعقل المادى الضيق
٧٩	مخالفة قصة يوسف للمألوف المعروف
٨٠	مماثلة بين قصة يوسف ومحمد صلى الله عليه وسلم
٨٠	تبشير لرسول الله بالنصر الكريم والمستقبل العظيم
٨١	انتصار مقرون بانتصار الامة
٨١	مصدر القوة والثقة والامل للدعاة والعاملين والمؤمنين
٨٢	الصالحين
٨٣	اما الايمان بدعوة الانبياء واما الهلاك والدمار
٨٤	لا قيمة للمصالح الفردية والقومية
٨٤	التفكير الخاطيء السائد
٨٥	سلاح المؤمن ومفتاح النجاح الايمان والطاعة
٨٦	لا مستقبل للامة الاسلامية الا فى طريق الانبياء

المحاضرة الخامسة

عظمة البعثة المحمدية

٨٧	نكبة العصر الجاهلى
٨٧	فقدان العلم الصحيح

الصفحة	الموضوع
١٠٣	نموذج انساني رائع
١٠٥	الجيل الاسلامى الاول
١٠٦	تأثير الرسالة الحمديّة في الأجيال المتأخّرة
	بعض تلاميذ المدرسة الحمديّة العالميّة الخالدة وأمثلة من
١٠٧	حياتهم وأخلاقهم
	انتاج هذه المدرسة المباركة الدائم في كل أمم وفي جميع
١١١	العصور
١١٣	فهرس الكتاب

مطابع الاهرام التجارية
رقم الايداع بدار الكتب
١٩٧٤ / ٤١٢٤